الباب الثانى
الروح فى اليوم الآخر

تمهيد..

الفصـــل الأول: المذهب المادى.

الفصـــل الثانى: مذهب الفلاسفة الإلهيين.

الفصـــل الثالث: التناسخية.

الفصـــل الرابع: مذهب المتكلمين.

الفصل الخامس: منهج القرآن فى إثبات البعث.

تمهيد

بدأت الإنسانية عهدها على ظهر هذه الأرض منذ هبوط آدم عليه السلام تحقيقا للوعد الإلهى «إنى جاعل فى الأرض خليفة».

وكان البيان الأول لخطة بناء الحياة قوله تعالى:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1].

ومن هذا البيان نستخلص الحقائق التالية:

١ - الإنسانية بدأت مؤمنة موحدة تلتزم الحق وتدعو إليه فقد نزل آدم عليه السلام مهديا مجتبى.

٢ - وعد الله لبنى الإنسان بأن يرسل لهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

٣ - العقيدة الواجبة تبدأ بالإيمان بالله واهب الوجود ومفيض الأرزاق، صاحب الملك والملكوت، وتنتهى بالإيمان باليوم الآخر حيث توفى فيه كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون.. وبين المبدأ والمعاد هناك منهج حياة، يحقق للأحياء كرامة الدنيا وسعادة الآخرة.

من هذا المنطلق تواكب المسير فى الحياة، وارتفعت حرارة الإيمان وانخفضت، وآمن الناس وكفروا، وبين الحين والحين تظهر الهداية الإلهية على يدى رسول كريم توضح الحقيقة وتجليها.. وعلى مدار الرسالات الإلهية كانت تلك الحقيقة هى هى من عهد آدم إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله عليهم أجمعين:

---

(١) سورة طه آية ١٢٣ ، ١٢٧.

إيمان بالله..

ومنهج حياة..

واستعداد ليوم الجزاء..

قالها نوح عليه السلام:

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

وأعلنها إبراهيم الخليل أمام قومه:

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾[2].

وصدع بها موسى وهارون لفرعون وقومه:

﴿ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[3].

ومن فوق جبل بمكة وقف محمد ﷺ ينادى على بطون قريش فلما حضروا قال لهم: لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ؟.

قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا قط.

قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، ثم أعلنها القرآن:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[4].

---

(١) سورة هود آية ٢٥ ، ٢٦.

(٢) سورة الشعراء آية ٧٥ ، ٨٣.

(٣) سورة طه آية ٤٧ ، ٤٨.

(٤) سورة سبأ آية ٤٦.

هكذا كان الوحى الإلهى يقود خطى الناس على درب الهدى وسبيل الرشاد، ويقيمهم على جادة الطريق، ويثبت أقدامهم على الصراط السوى.

ولكن الناس — فى أزمان كثيرة — انحرف بهم الهوى، وتشعبت بهم الطرق، وسرت فيهم مذاهب بدعة وضلال.. غير أن الحقيقة التى بقيت ماثلة أمام الأذهان واعتنقتها معظم شعوب الأرض هى تلك الفطرة المركوزة فى النفس بأن الحياة لابد لها من واهب.. وأن الكون لابد له من مدبر..

وأن للإنسان حياة أخرى للحساب والجزاء.

هذا..

وعقيدة البعث - التى نبحثها هنا - تمثل فكرة الأمل فى قلب الإنسان.

فطلوع الفجر بعد ليل كالح - بعث جديد..

وقدوم الربيع بعد شتاء قارص - بعث جديد..

والإنسان فى يومه وليله بين حياة وبعث ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[1].

والحياة تجمع بين الحق والباطل والعدل والظلم، فإذا لم يكن للمغلوب أمل يحيا به ويعيش عليه فى أنه سينتصر يوما وسيأخذ حقه حتما كان ذلك قضاء على وجوده وقتلا لحياته.. فما أقل الإنصاف فى دنيا الناس وما أكثر المظلومين فى سجون الطغاة.!!

وإذا لم يكن لذوى الحق والخير والفضيلة - أمل فى أن يحسب لهم هذا ويجازوا عليه انعدم الحافز على الخير وبطل الداعى إلى المعروف وكانت حياة تعسة مرذولة..

فلابد من حساب:

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾[2].. فإما.. أن تكون هناك حياة أخرى وخلود.. أو لا تكون عدالة.

---

(١) سورة الأنعام آية ٦٠.

(٢) سورة آل عمران آية ٣٠.

المذاهب الفلسفية والكلامية
فى البعث وحقيقته

باستعراض الآراء والمذاهب الواردة فى البعث وحقيقته كما حكاها كثير من العلماء أمثال الشريف الجرجانى فى شرح المواقف، وسعد الدين التفتازانى فى المقاصد، والرازى فى الأربعين، وكما تظهر من القراءات العامة فى كتب الفلسفة، يمكن تلخيصها فيما يلى:

(أ) مذهب الفلاسفة الطبيعيين:

والقول عندهم أنه لا معاد أصلا..

(ب) مذهب الفلاسفة الإلهيين:

والرأى عندهم إثبات المعاد الروحانى فقط.

(جـ) مذهب التناسخية:

وزعمهم أن الروح تنتقل من شخص لآخر ثوابا وعقابا أزلا وأبدا.

(د) مذهب المتكلمين:

وهم فريقان:

١ - الجمهور يرى أن البعث جسمانى فقط.

٢ - المحققون يرون أنه جسمانى وروحانى معا.

هذا وهناك زعم منسوب إلى «جالينوس» وهو التوقف فى أمر المعاد الروحانى لتردده فى حقيقة النفس، وفنائها أو بقائها مع إنكار البعث الجسمانى قولا واحدا كرأى عامة الفلاسفة.

وهذا الرأى لا يعنينا لأنه فى حال إثباته سيلتقى مع الإلهيين وفى حال نفيه سيلتقى مع الطبيعيين، ولنا مع كل وقفات إن شاء الله.

فإلى تفصيل هذه الآراء.. وبيان الحق فيها.. وما توفيقى إلا بالله.

الفصل الأول

المذهب المادى

يقوم المذهب المادى على إنكار كل ما وراء الحس والتجربة المادية وقصر أربابه فكرهم واعتقادهم على التفسير المادى للحياة.

وقد مر الفكر المادى بمراحل عدة، وأطوار شتى من عهد طاليس وانكسيمانس وديمقريطس فى العصر اليونانى القديم، إلى معطلة العرب فى الجاهلية، وإلى كارل ماركس ونيتشه وسارتر وغيرهم فى العصر الحديث ولكل وجهة فى نشأة العالم وكيفية الحياة ومآلها.. إلا أنهم مجمعون على رفض الألوهية واليوم الآخر والنبوات﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ ويتلخص رأيهم فيما نحن بصدده – وهو البعث – فيما يلى:

أولا: الإنسان هو هذا الجسم المادى وعناصره التى يتركب منها وما ينشأ عنها من خواص ليست لأحد العناصر منفردا، وهو ما يسمى بالمزاج، وهو يفنى بالموت ولا يبقى إلا العناصر المتفرقة.

والفكر – هو أخص وظائف النفس – ليس إلا وظيفة عضوية للمخ لإنتاج الأفكار كما أن وظيفة المعدة هضم الطعام.

وكما قال مولسكوت الهولندى: (١٨٢٢ – ١٨٩٣م) «لا فكر بغير فسفور».

ثانيا: لا إله والكون مادة، فالحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أزلا وأبدا وما اندثر لا يعود لاستحالة إعادة المعدوم.

ثالثا: الدين أفيون الشعوب. يحرمها من طيبات الحياة ويبعدها عن ملذاتها، والإيمان بالبعث مجرد وهم وحلم للمستضعفين فى الأرض يزكى منهم روح التواكل وتقبل الواقع والاستسلام للجبارين أصحاب السلطة.

***

هذه خلاصة المذهب المادى وهو – كما ترى – يعاند منطق العقل الراشد ويناقض صوت الفطرة السليمة.

وسنحاول أن نأتى على هذه الشبهات من القواعد ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ ومن أجل ذلك نركز على النقاط التالية.

١ – إثبات الروح.

٢ – حقيقة الحقائق «وجود الله تعالى».

٣ – إمكان البعث.

٤ – حكمة البعث.

٥ – الدين والحضارة.

هذا.. وقد تكلمنا بالتفصيل عن الروح فى الباب الأول.

أولا: حقيقة الحقائق

إن الكون بأجزائه وجزيئاته ينطق بلسان لا ترد حجته بأن له واهبا أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، والفطرة الإنسانية فى حال نقائها وبعدها عن غوائل السوء تلجأ إلى الذى فطرها فسواها، والإنسان إذا أظلم عليه السبيل أو هاله ليل أو جاءته ريح عاصف أو هاجه موج ثائر – رجع إلى صوت الفطرة وتضرع إلى الله وحده رجاء كشف الضر، فتتداركه يد العناية وتسبغ عليه من النعم ظاهرها وباطنها.. لكنه هو الإنسان الظلوم الجهول ما يكاد يستشعر بسطة جسم أو فضل نعمة حتى يقول: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]..

إن الإلحاد لا يقوم على حجة وإنما ينشأ عن هوى طائش، وشهوة جامحة، وخبث دفين.. وقد يكون عن ارتجال وانسياق أو نتيجة ظروف تحيط بالشخص من فقر اجتماعى أو مرض نفسى أو أزمة عائلية.. وقديما تبرم الشعراء بالقضاء والقدر فقال أحدهم:

كم عالم عالم ضاقت مذاهبه ... وجاهل وجاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

ولو تعقل هذا القائل نظام الحياة وحكمة الوجود لانقلب صديقًا لا زنديقًا..

---

(١) سورة الأنعام آية ٦٣ ، ٦٤.

وهؤلاء الماديون لا يعللون الحياة ونشأتها والكون ووجوده إلا بالمصادفة أو الطبيعة ويقول أحدهم وهو «هكسلى»[1]:

لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور فى المادة لبلايين السنين.

وهذا المثال يحمل دليل فساده كما يقول العقاد تعليقًا على مثال قريب منه[2]:

«لقد فاتهم أنهم قدموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التى ترتبط بعلاقة اللفظ وينشأ عنها الكلام المفهوم، فإن وجود الفاء، والياء، واللام، والسين، والواو مثلا لا يكون قبل وجود كلمة أو كلمات تشتمل على هذه الحروف..

فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماثلة ترتبط بينها بعلاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التى بين الحروف الأبجدية؟!

ومن أين للمادة هذا التنويع فى الأجزاء؟!

ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم؟!

وفاتهم أن الوصول إلى تنضيدة مفهومة منظومة لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها..

فلم تماسك النظام فى الكون بعد أن وجد مصادفة واتفاقًا ولم يسرع إليه الخلل وتنجم فيه الفوضى قبل أن ينتظم على نحو من الأنحاء؟!

وما الذى قرره وأمضاه وجعله مفضلا على الخلل والفوضى وهما مثله ونظيره فى كل احتمال؟!».

إن المجال العقلى فى النظر إلى الكون سمائه وأرضه، حيوانه وطيره، بره وبحره، ثمره وزرعه - كفيل بقيادة البشر ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ وجدير بإظهار حقيقة الحقائق:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[3].

---

(١) نقلا عن كتاب «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان.

(٢) الله - ص ٢١٦.

(٣) سورة الحج آية ٦٢.

وحينما سئل رائد الفضاء السوفيتى (جاجارين) عما شاهده فى رحلته الأولى حول الأرض قال: لقد شاهدت الأجرام السماوية والكواكب تدور فى نظام دقيق كأن قوة عليا تمسك بها وتهيمن عليها.

ذلك هو الشعور الفطرى الذى عبر عنه القرآن بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1].

وما كاد (جاجارين) يصرح بذلك حتى استدعاه (خروشوف) رئيس الوزراء السوفيتى وذكره بشيوعيته فكيف ينطق بما يفهم منه الإيمان بالله.. فلم يلبث أن أعلن بعد ذلك أنه بحث عن الله فى كل مكان فى السماء فلم يجده..!!

وقد زار القاهرة خلال شهر يناير سنة ١٩٧٥ رائد الفضاء الأمريكى (جيمس أروين) قائد رحلة أبوللو ١٥ التى استغرقت ثلاثة عشر يوما من ٢٦ يوليو إلى ٧ أغسطس عام ١٩٧١ وقضى منها حوالى عشرين ساعة على سطح القمر فى سيارة خاصة..

وفى حوار صحفى معه نشر فى صحيفة أخبار اليوم (١٩٧٥/١/١١) قال:

لقد أدى نزولى على سطح القمر إلى زيادة إيمانى بالله وزادت العقيدة الدينية عمقًا فى نفسى..

فقيل له: ولكن جاجارين قال إنه بحث عن الله فى السماء فلم يجده؟!

فقال أروين: أنا لا أعرف إذا كان جاجارين قد صرح بذلك أم لا، ولكنى أحب أن أوضح أن الإنسان لا يمكن أن يرى الله بعينيه كما يرى سائر الكائنات.. وأنا أيضًا لم أر الله فى رحلتى من الأرض إلى القمر.. ولكنى شعرت به وازداد إيمانى بوجوده.. وبقدرته.. وبقوته.. فهذه الكواكب والنجوم التى تسبح فى الفضاء اللانهائى بنظام رائع، وبديع، ومحكم لا يمكن أن تكون قد وجدت تلقائيا أو بمحض الصدفة ولكن لابد من وجود قوة خارقة لا يبلغ مداها عقل الإنسان هى التى تتولى تنظيم حركة الكون وحركة الكواكب والنجوم فى الفضاء.. وهذه هى القوة الإلهية..

---

(١) سورة فاطر آية ٤١.

ثانيًا : إمكان البعث

إذا كان العلم الحديث قد وقف على كثير من حياة الإنسان ودخائله فإنه عاجز تمامًا عن إدراك ما بعد الحياة، وكل ما يقوله فيه فهو حدس وتخمين، يستوى فى ذلك من عاش قديمًا أو حديثًا.. وغاية ما يصل إليه العقل أو العلم لن يزيد على ما قاله قس بن ساعدة فى سوق عكاظ:

أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا.. فإن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا فأقاموا؟! أم تركوا فناموا؟!

وقديمًا حاول بعض المنكرين — نفى عذاب القبر وسؤاله بوضع الزئبق على جسد الميت ليثبت أنه لا يتحرك؟

وحديثًا وضعوا آلات التسجيل داخل القبر لمحاولة استراق السمع، وكلها محاولات يائسة لا تدل إلا على ضمور العقل وضيق الأفق.. وحيث لا مجال للعلم ولا للعقل أن يستقل بمعرفة ما بعد الموت وحقيقة الأمر هناك فى عالم الغيب فما علينا إلا أن نلقى السلم إلى كتاب الله وسنة رسوله نستوضح الخبر ونستجلى الحقيقة ما دمنا قد آمنا بالله وكمالاته الإلهية عن طريق البرهان القطعى وأنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق مؤيدا بالمعجز التى تواترت جيلاً بعد جيل شاهدة على صدقه ونبوته وأنه لا ينطق عن الهوى..

وعلينا متى صح النقل — الإيمان بأمور سمعية أخبر بها الشارع وهى فى نفسها أمور ممكنة عقلاً لا تجمع بين متناقضات ولا تصادم أصلاً من أصول الاستدلال..

***

جاء رجل مشرك إلى الرسول ﷺ ومعه عظم قد بلى ورم فتته وذراه فى الهواء وقال بتحد: يا محمد أترى أن الله يحيى هذه؟!

فقال الرسول ﷺ بصوت الواثق: نعم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار..!!

ونزل قوله تعالى:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

***

ولنا مع هذه الآيات الكريمة وقفات نجملها فيما يلى:

١ – إن الإعجاز الخلقى فى الإنسان يفوق كل تصور..

وما كان أجهل ذلك السائل حين قال من يحيى العظام وهى رميم وبين يديه جواب سؤاله، فبداية الإنسان سلالة من الأغذية تتحول إلى نطفة نتيجة عمل أجهزة دقيقة غاية الدقة ثم تصير إلى قطعة دم جامدة تعلق فى الرحم ذلك القرار المكين ثم تنقلب إلى قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغه الإنسان ثم تتحول إلى عظام ثم تكسى العظام باللحم ثم ينفخ فيه الروح فيكون خلقًا آخر مباينًا للنشأة الأولى..

فتبارك الله أحسن الخالقين..!!

إن جسم الإنسان عجيب التكوين فكم لديه من الأعضاء الداخلية والخارجية؟ وكم فيه من الغدد والأغشية؟! وكم له من الأجهزة؟!

ومع التقدم الحثيث فى الكشف عن نواميس الكون فإن خفايا الإنسان وبواطن الحقيقة فيه ما زالت مغلقة أمام البحث العلمى الدؤوب..

٢ – إن الذى أبدع الإنسان وأحسن خلقه وعدل صورته ووهبه عجائب الخلق والتقدير – لا شك قادر أن يعيد ما بدأ وأن يبعث الموتى ويحيى العظام وهى رميم..

والممكن يستوى طرفا وجوده وعدمه ومتى توجهت الإرادة الإلهية إلى أحدهما فلابد كائن.. وما يقال من أن إعادة المعدوم مستحيلة فضرب من الأوهام والخيالات الكاذبة فالممكن لا ينقلب مستحيلاً، ولا أثر للأوقات فيما هو بالذات، ثم ما هو المعدوم الذى قالوا باستحالة إعادته؟!..

---

(١) سورة يس آية: ٧٨ : ٨٣.

إن كل ما يعترى الإنسان هو التفتت والتفرق، والمادة يمكن أن تتشكل ولا تفنى فالماء بالتسخين يصير بخارًا والبخار بالتبريد يصير ماء وهكذا فالله تعالى يفرق الأجزاء ويخرجها عن الصفة التى كانت عليها ثم يؤلف بينها مرة أخرى.

وقد قال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾[1]. والقيامة ما هى إلا سماء تتشقق وكواكب تنتثر وبحار تنفجر وقبور تتبعثر..

***

وإذا كان العلماء قد اختلفوا فى إعادة الأعراض فقال بعضهم – كما حكى صاحب المقاصد[2] – يمتنع إعادتها مطلقًا لأن المعاد إنما يعاد معنى فيلزم قيام المعنى بالمعنى.

وقال الأكثرون منهم بامتناع إعادة الأعراض التى لا تبقى كالأصوات والإرادات لاختصاصها عندهم بالأوقات وقسموا الباقية إلى ما يكون مقدورًا للعبد وحكموا بأنه لا يجوز إعادتها لا للعبد ولا للرب، وإلى ما لا يكون مقدورا للعبد وجوزوا إعادتها..

أقول إن هذا الخلاف لم يعد له محل بعد التقدم العلمى الحديث فالأصوات تبقى فى الوجود لا تفنى ولا تتبدل ولا يعتريها أدنى تغيير..

والصوت يحدث موجات أثيرية تظل فى الهواء ويمكن التقاطها كما هو الحال فى الإذاعة بل (يدرس[3] العلماء حاليًا محاولة استقبال إذاعة سابقة، فأساس هذه النظرية هو نفس ما قامت عليه الإذاعة ويحاول العلماء استخدام أجهزة معينة تلتقط الأصوات المعنة فى القدم وإذا عولجت هذه الأجهزة بحيث تعمل بأمواج معينة وأطوال محددة واهتزازات مقدرة فإنه يمكن التقاط أحاديث جماعات فى مكان محدد تمت منذ أزمنة معينة مهما كانت بعيدة..).

كذلك يؤكد العلم الحديث أن جميع الأعمال التى يباشرها الإنسان تصدر عنها اهتزازات حرارية تظل موجودة فى الفضاء تعكس صورة العمل، ومن الممكن تجميع هذه الصورة فى أى لحظة..

ويقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل[4]:

لقد استمر العلماء فى أبحاثهم التى بدأوها منذ سنوات قليلة حول أثر العمل والحركة فى الوجود، ووصلت دراساتهم وتجاربهم إلى حقائق قاطعة وأدلة مادية وأصابهم النجاح إلى درجة كبيرة، وفى وقت قصير.

---

(١) سورة ق آية ٤.

(٢) المقاصد – جـ ٥ ص ٨٣ تحقيق د. عبد الرحمن عميرة.

(٣) طريق إلى الله – للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ١٣٦.

(٤) المرجع السابق.

ولقد أصاب الناس العجب وأى عجب عندما نشرت الصحف صورة التقطها العلماء بأجهزة تصوير خاصة لمكان خال فظهرت فى الصورة سيارة كانت موجودة قبل التصوير بمدة تقرب من الساعة بل مما يثير الدهشة أكثر من ذلك أنه أمكن بملاحظة درجات لون السيارة معرفة درجة حرارتها أى السرعة التى كانت تسير بها، وما زالت الأبحاث مستمرة والدراسات متواصلة لعل العلماء يصلون بأبحاثهم هذه إلى تصوير حوادث وقعت فى أزمنة غابرة وبيان أعمال اعتقد الإنسان أن الزمن وقد مر عليها قد محاها..

كل هذا مما يقرب لنا المعنى الذى سجله القرآن الكريم فى قوله:

﴿ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]

وقوله سبحانه: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2].

***

ومع التسليم الجدلى فإن الإنسان ليس مادة فقط.

وإنما هو روح وبها يتمايز عن الحيوان الأعجم، وهى مناط الإدراك وعليها مبنى الطاعة والعصيان فلا مانع من أن يكون المعاد مثل المبدأ لا عينه بأن يخلق الله تعالى بدنا تلابسه الروح ولهذا يقال[3] للشخص من الصبا إلى الشيخوخة إنه هو بعينه وإن تبدلت الصور والهيئات بل وكثير من الآلات والأعضاء، ولا يقال لمن جنى فى الشباب فعوقب فى المشيب إنها عقوبة لغير الجانى).

٣ — وإلى هؤلاء الذين تتقاصر عقولهم عن إدراك حقية البعث وحقيقته وأن من أنشأ يمكن أن يعيد تسوق الآيات الكريمة توجيهين:

(أ) الشىء يحدث من نقيضه فالنار تخرج من الشجر الأخضر نتيجة احتكاك خاص فمن الأولى أن يحدث الشىء من ذاته ويعود الإنسان كما بدأ..

وقد قال العلماء إن هناك أنواعا من الشجر فيه هذه الخاصية، ولكن يمكن أن يكون العموم مرادا على أساس هذه الفكرة التالية:

دبب[4] طرف أحد الفروع حتى يصبح كالقلم الرصاص ثم احفر حفرة صغيرة فى جانب فرع آخر.. ضع الفرع المدبب عموديا فى حفرة الفرع الآخر الأفقى ثم حرك الفرع الرأسى حركة دائرية سريعة بينما طرفه فى الحفرة وسوف تكتشف أن الاحتكاك أشعل الطرف المدبب.

---

(١) سورة الجاثية آية: ٢٩.

(٢) سورة الكهف آية: ٤٩.

(٣) المقاصد — جـ ٥ ص ٩١.

(٤) صحيفة الجمهورية (٦ / ١ / ١٩٧٢).

وكانوا يشعلون — وما زالوا — السيجارة بهذه الطريقة فى الحبشة ويقولون سبحان:
﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

وأخبرنى الدكتور نبيل الزهار العميد السابق لكلية التربية بجامعة قناة السويس أنه رأى فى الولايات المتحدة الأمريكية شجرا يسمى «سكويا» يحترق ذاتيا ليوفر لنفسه عوامل بقائه وسط الجو الشديد البرودة هناك، وإذا لم يحترق ذاتيا فإن الناس يشعلون حوله النار ليحافظوا على نمائه..

وجذوع هذه الأشجار تمثل أسطوانة دائرية قد تكون واسعة جدا ولا يستطيعون قطعها من وسط الطريق فيشقون فى جوفها أنفاقا لعبور السيارات..

***

(ب) إن الإبداع الكونى والنواميس الطبيعية فى السماء والأرض تفيض بأسرار وحكم لا تتناهى..

إن عدد النجوم التى فى الكون لا يكاد يحصى ويقول أحد الباحثين — لو استطعنا أن نعد النجوم بسرعة (١٥٠٠) نجم فى الدقيقة لاستغرق عدنا للنجوم كلها (٧٠٠) سنة!!.

وإذا علمنا أن لكل نجم مجموعة من الكواكب، وأن الشمس مثلا لها تسعة كواكب فكم يا ترى يكون عدد الكواكب التابعة لهذه النجوم؟!.

ثم ما هى أحجام هذه الكواكب والنجوم مع العلم بأن حجم الكوكب الواحد يزيد آلاف بل ملايين المرات عن الأرض التى نعيش عليها؟!

وقد ثبت علميا أن بعض النجوم يصل ضوءها إلى الأرض فى ملايين السنين الضوئية..!!

والسنة الضوئية تحسب هكذا:

(١٨٦) ألف ميل فى الثانية:

× ٦٠ تضرب فى (٦٠) فنحصل على السرعة فى الدقيقة.

× ٦٠ تضرب فى (٦٠) فنحصل على السرعة فى الساعة.

× ٢٤ تضرب فى (٢٤) فنحصل على السرعة فى اليوم.

× ٣٦٥ تضرب فى (٣٦٥) فنحصل على السرعة فى السنة.

فإذا ضربناها فى ملايين السنين كان عدد تصعب كتابته وإذا كتب فلا ينطق ولا نملك إلا أن نقول: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

فإذا اتجهنا إلى ما يحيط بالإنسان في سمائه وأرضه من ليل ونهار وجبال وأنهار وزرع وثمار، وطيور وأنعام – نجد صوت الفطرة ينادى: أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم.؟ بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

ثالثا: حكمة البعث

يقضى الإنسان حياته الموهوبة إلى أن يحين الأجل المسمى فينتقل من هذه الحياة، لا تمنعه قوة ولا ترده حيلة ولا يؤجله طب.. وتعجز الإنسانية جمعاء وتقف حيرى أمام هذا الابتلاء الإلهى:

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

فهل تنتهى قصة الإنسانية بالقبر؟ إن هناك ضرورات تحتم أن يكون للإنسان غد ولأعماله ميزان.. ويمكن أن نجملها فيما يلى[2]:

(أ) الجانب النفسى:

إن لكل إنسان أمانى كثيرة لا تكلل بالنجاح فى حياته، وإنه يتمنى حياة أبدية ولكن الحياة التى أعطيت له تخضع لقانون الموت.. والعجيب أن الإنسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمة بعد ما كسب من العلم والمعرفة والخبرة والتجارب الثمينة حينئذ تداهمه دعوة الموت.. ولقد أكدت إحصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين ٤٥ – ٦٥ سنة من أعمارهم ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف جنيه فى السنة، وفى ذلك الوقت الثمين فجأة تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء أو ذات صباح فيرحلون إلى عالم مجهول..

ولا يوجد على ظهر الأرض من يفكر فى الغد غير الإنسان، ولا شك أننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها كالنمل الذى يدخر غذاءه للشتاء القادم، والطيور التى تصنع أعشاشا يسكنها أولادها بعد فقسهم ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر غرزيا فهو صادر من غير شعور بالمسئولية، إنها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد.

---

(١) سورة الواقعة آية: ٨٣ – ٨٧.

(٢) الإسلام يتحدى ص ٩١ : ١٠٠ بتصرف.

فالتفكير فى المستقبل يتطلب فكرا مدركا واعيا وهو من مميزات الإنسان فحسب.

فحياة الحيوانات هى حياة اليوم ولا توجد لديها فكرة الغد. ولكن حياة الإنسان وحده تقتضى غدًا.

(ب) الضرورة الأخلاقية:

إن فطرة الإنسان تميز بين الخير والشر، والعدل والظلم.. ولكن الإنسان كثيرا ما يهدد هذه الفطرة ويظلم بنى جنسه، والعالم كله صورة من الاعتقالات والخطف والنهب والاتهامات الكاذبة والتجارة السياسية والدعايات الباطلة..

إن الحيوانات لا تظلم فصائلها فالأسد ليس فى الأسود أسدا، والنمر ليس فى العرين نمرا ولكن الإنسان أصبح يفترس إخوانه حتى الأقربين منهم معا لا يوجد له مثيل فى قانون الغابة.

وإن التاريخ الإنسانى – فى جزئه الأكبر – يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان.. فهل خلق العالم ليكون مسرحًا للمآسى؟! ثم لا ينال الظالم والمظلوم جزاءهما؟!.

إن عالما من هذا القبيل إعلان فى حد ذاته عن أنه ناقص وهذا النقص فى ذاته يقتضى ما يكمله..

فإما أن يكون هناك خلود أو لا تكون عدالة..

(جـ) مشكلة السلوك:

ما هى كيفية إجبار الناس على سلوك طريق الحق؟ إن رهبة عقاب الدنيا لن تنجح فى قمع انحرافات الإنسان، ولن يفلح غير الباعث الداخلى للإنسان.. وهذه ميزة غير متاحة إلا فى عقيدة الآخرة؛ تجعل الإنسان فى الظلام أو الضوء يفكر فى أنه لابد من يوم للقاء الله وسوف يحاسبه حسابا عسيرا..

إن حاجتنا الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة الدنيا وإقامتها على أسس عادلة – فى حد ذاتها – تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون.

وإذا كان (كانط) قد أنكر الألوهية بالعقل النظرى إلا أنه أكد ضرورتها كأساس لإقامة المبادئ الأخلاقية بالعقل العملى..

(د) الضرورة الكونية:

الكون بجميع أجزائه ينطق بوجود الصانع المبدع ووحدانيته وواسع علمه وعظيم حكمته.

فلابد من وجود علاقة بين الإله والإنسان.. فمتى ستظهر هذه العلاقة جليا؟ أما بالنسبة لهذه الحياة فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد فالرجل الملحد يصيح قائلا: إنى لا أخاف الله وقد لا يصاب بأذى بل قد يتسلم مقاليد الحكم..، أما الذين يبلغون رسالات الله فينالهم الكثير من الأذى والاضطهاد.. فلا مناص من الإيمان بالآخرة كنتيجة حتمية للإيمان بالله..

بعد هذا أستطيع أن أورد آية من كتاب الله فى كل جانب من الجوانب السابقة كتأكيد للمعنى الذى ساقه وحيد الدين خان:

(أ) قال الله تعالى:

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[1].

فهذا مما يؤكد الجانب النفسى لدى الإنسان، فإذا كان الموت سيحرمه من مال يكنزه أو ولد يعتز به فإن هناك موعدا لنعيم لا يبلى فليكن أملك أيها الإنسان فيما هو أبقى.

(ب) قال الله سبحانه:

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

فإنكار هؤلاء للبعث إنما جهل منهم بمقتضى الحكمة وقصور عقلى عن إدراك الحقيقة فلابد من يوم تتجلى فيه الحقيقة.. وتتراءى للعالمين.

(جـ) قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[3].

---

(١) سورة الكهف آية: ٤٦.

(٢) سورة النحل آية: ٣٨ ـ ٤٠.

(٣) سورة طه آية: ١٥.

فمحكمة العدل الإلهى لديها من الوثائق والبينات ما يجعل الناس يصرخون:

﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1].

(د) قال الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

فهذا الكون البديع له غاية يسعى إليها، وواهب الوجود له هو مدبر الأمر فيه وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.. ولا يمكن فى العدل الإلهى أن يستوى من آمن بالله ومن كفر، فالدنيا دار ابتلاء لكن نعيم الآخرة خالص للمؤمنين..

رابعًا: الدين والحضارة

الإيمان بالله ليس دعوة إلى الانفراد عن الحياة والبعد عنها.. وإنما هو تحقيق للفضيلة والكرامة فى مجتمع البشر، وتخليص لأفراده من ذل العبودية الوضيعة لصنم أو طاغوت، وإزكاء لمثل رفعية تحفظ لهم قرائحهم الإنسانية ووجودهم الروحى والمادى معا، مما يؤهلهم للسير فى هذه الحياة على هدى وبصيرة، بطيب العمل وقويم السلوك، عمارة للأرض وزادا للسماء..

ويمكن تصور إشراقات الإيمان على الجنس البشرى، وأثره فى قيادة القافلة البشرية إلى حيث القيمة والقمة من ثلاثة مواقع نوجزها فيما يلى:

(أ) الفرد:

المؤمن — كما أراده الله — تجسيد لكل معانى الشرف والنبل، وهو مثل حى يمتزج فيه السمو الروحى بالشعور الإنسانى، فيستروح بقدس الله ويتصل بمصدر الكمال والجمال:

---

(١) سورة الكهف آية: ٤٩.

(٢) سورة ص آية: ٢٧، ٢٨.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وعلى العكس من ذلك نجد الإنسان الذى يهوى إلى الأرض يستلهم وجهته ممن عليها بما ينطوى عليه من ضعف فى الإدراك والسعى، وضعف فى العلم والإحاطة، وضعف فى القدرة والإرادة ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[2].

ثم إن المؤمن عصى على القلق بعيد عن أمراض النفس يستشعر روعة الحق، ويعيش مع من حوله فى جود تسوده سمات السعادة وتحوطه نسمات العزة بلا نفاق أو رياء وبلا كيد أو دهاء ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[3].

ومن هنا يتغلل الإيمان فى نفس المؤمن فيسمو به على كل المعوقات وينطلق به من فوق كل المثبطات.. فهو يوقن أنه لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوه بشىء لن ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له ولو اجتمعوا على أن يضروه لن يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه.

ولهذا فهو يلتزم منهج الحق فى نفسه ومنهج النصح لمجتمعه لا يخشى فى الله لومة لائم ويتمثل قول الرسول ﷺ «إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستوفى أجلها ورزقها».

إن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها.. وإن النفس الملحدة تساق من ظاهرها برهبة السوط وعين القانون، ومتى أخطأ السوط أو غفل القانون فهناك مجالات رحبة من فوضى الأخلاق والمعاملات وصراع الطبقات وغلبة الأقوياء وسريان قانون الغاب.

(ب) الحس الاجتماعى:

يتحقق خير المجتمع بعدى ما يتأصل فيه من معانى الأخوة وقرابة الرحم وكرامة الإنسان والتعاون التام.

والإيمان — وحده — هو الذى ينظم هذه المعانى وينسق بينها ويقدمها فى أحسن صورة وأجلاها، فهو يسعى إلى تربية النفس وتأصيل مبادئ الخير فيها، واستحثاثها غيرة على الحق لا تعرف الملق، وخدمة للآخرين فى السر والعلن لا يشوبها مَنٌّ ولا أذى، ونصرة للضعفاء وذوى الحاجات لا تعرف خورا أو تفريطا. قال تعالى:

﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ

---

(١) سورة المنافقون آية: ٨.

(٢) سورة النساء آية: ٢٨.

(٣) سورة الرعد آية: ٢٨.

ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

فالحس الاجتماعى المؤمن غير متأثر بالعاجل من المنافع بل يولى وجهه شطر غايات أرحب ألا وهى ما يفهم من قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[2].

لدينا نموذج تطبيقى فريد عندما آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ولم تكن بينهم وشيجة قربى أو صلة رحم، وشارك المهاجر الأنصارى فى ماله يقتسمه معه عن طيب خاطر تحقيقا للأصل القرآنى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[3]. تلك الأخوة القائمة على المحبة لله والمحبة فى الله فى إطار عزة الإيمان ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

(جـ) حضارة الأمة :

إن أمة تتكون لبناتها من أفراد يمثلون الفضيلة فى أرقى صورها، ويسود مجتمعها حس اجتماعى مؤمن، ويقودها منهج للإصلاح يهدى للتى هى أقوم وتسير بخطى ثابتة فى كفالة العقل الرشيد - إن أمة هذا شأنها - هى بلا ريب من الإنسانية ذروتها ومن الحضارة قمتها ومن التقدم سنامه ومن الخير جماعه.

ويوم عرف المسلمون طريقهم إلى كتاب الله واستلهموه رشدهم قادهم إلى أمة هى من التاريخ غرته ومن الزمان ربيعه وأبدعوا حضارة شملت العالم من أقصاه إلى أقصاه، وحفظت للإنسانية قرائحها وجادت عليها بأسمى ما ترنو إليه فى العلم والأدب.. فى الأخلاق والدين.. فى الحضارة والنهضة. وكانت مراكز حضارة الإيمان فى الأندلس وصقلية والقاهرة ودمشق وبغداد مشاعل أضاءت الطريق للحضارة الحديثة.

وما يقال من أن الدين والعلم نقيضان فتلك أسطورة تكونت منذ عصر النهضة فى أوربا بعد أن قاسى البحث العلمى من عوامل التدمير ومعاول الهدم على أيدى رجال الكنيسة الذين أزهقوا الأرواح ونكلوا بالعلماء فى وحشية قاسية باسم الكنيسة والمسيحية.. وحسب القارئ لهذه الفترة أن يصدم بصكوك الغفران ومحاكم التفتيش ليرى كيف كانت الكنيسة حجر عثرة فى سبيل التقدم الإنسانى.

من هنا انطلق الباحثون فى شبه بلبلة فكرية إلى إنكار مباحث الألوهية والقول بأن الكون كله يقوم وحده.

---

(١) سورة النساء آية: ١١٤.
(٢) سورة الإنسان آية: ٩.
(٣) سورة الحجرات آية: ١٠.
(٤) سورة المنافقون آية: ٨.

غير أن الحقيقة الضائعة هنا أن هؤلاء لم يفرقوا بين الدين كرسالة إلهية ورجال الكنيسة كبشر فتكونت عقدة نفسية لدى الباحثين استحكمت حلقاتها، وبعد أن تحطمت الكنيسة وسقطت أغلالها انحلت العقدة وظهرت الحقيقة التى لا مرية فيها وهى أن الكون لابد له من مبدع..

وأن الحياة لابد لها من واهب.. ونطق بها باحثون من جميع التخصصات العلمية[1].

وبهذا يظهر أن قضية الصراع بين الدين والعلم هى قضية مسيحية فى نشأتها وهى خاصة بزمان ومكان معين، ولا يجوز أن يتناقلها غرّ ليلصقها بالإسلام أو المسلمين فقد كان التعليم فى المسجد يتصدر للتدريس فيه الفقيه والمتكلم والفيلسوف والفلكى والمحدث والنحوى.. إلخ فى جو يسوده الإقناع والاقتناع، وتعلو فيه الحجة وينتصر لذى البرهان حتى لقد كان واصل ابن عطاء شيخ المعتزلة يقرر مذهبه وإلى جواره فى المسجد الحسن البصرى شيخ أهل السنة.

وما يقال من أن الفكر قد صودر فى المحيط الإسلامى كما هو الحال مع الحلاج وابن رشد وابن خلدون وغيرهم فإن ذلك لم يكن لأجل فكره ورأيه فى ذاته بل كان سياسة مردها إلى الوشاية لدى الحكام أو محاولة قلب نظام الحكم أو التعالى على الخليفة كما روى أن ابن رشد كان إذا تكلم مع الخليفة يقوله له: تسمع يا أخى[2].

وما أعدم الحلاج لرأيه فقد قال به غيره وما أصيب بسوء وإنما الذى ساقه إلى حتفه صلات سرية تجمعه بالقرامطة أعداء الخلافة الألداء.

وما كان ابن خلدون يوم دخل السجن متهما بزيغ عقيدة أو انحراف فكر وإنما هى التقلبات السياسية التى عاصرها ومخاطر الاشتغال بالسياسة التى كابدها.

ومع التسليم الجدلى فإن الأفكار التى صودرت لم تكن بحثا علميًا تجريبيا - كما هو الحال فى أوربا - بل كانت بحثا نظريا تختلف فيه وجهات النظر إلى اليوم وإلى الغد بعده لأن الفلسفات النظرية عموما محاولات شخصية لفهم الحياة قد تصلح وقد تفشل ولا نعلم لها استقرارا.. ولهذا يروى أن أمراء الأندلس حينما أمروا بإحراق كتب الفلسفة استثنوا منها الطب والرياضة..

وبعد - فالإيمان منطق.. يصحح المسيرة الفكرية للبشر، والإيمان فضيلة.. يسمو ببنى البشر إلى حيث القيمة والقمة، والإيمان حضارة.. تسير بخطى حثيثة فى كفالة العقل الراشد وتحت أطياف الوحى الأمين..

وبهذا نكون قد انتهينا من المذهب المادى وأتينا عليه من القواعد بإيجاز مؤد للغرض، واف به إن شاء الله.

---

(١) راجع كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) تأليف نخبة من علماء أمريكا ترجمة د. الدمرداش سرحان، وكتاب (العلم يدعو للإيمان) تأليف كريسى موريسون ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى.

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة جـ ٢ ص ٧٧.

الفصل الثانى

مذهب الفلاسفة الإلهيين

من هم الفلاسفة الإلهيون؟

عرفهم الشهرستانى[1]:

بأنهم قوم لهم نوع تحصيل قد ترقى عن المحسوس وأثبت المعقول لكنهم لا يقولون بحدود وأحكام وشريعة وإسلام، ويظنون أنهم إذا حصلوا المعقول وأثبتوا للعالم مبدأ ومعادا وصلوا إلى الكمال المطلوب من جنسه فتكون سعادته على قدر إحاطته وعلمه، وشقاوته بقدر سفاهته وجهله، وعقله هو المستبد بتحصيل هذه السعادة، ووصفه هو المستعد لقبول تلك الشقاوة.

وهؤلاء هم الفلاسفة الإلهيون قالوا الشرائع وأصحابها أمور مصلحية عامية، والحدود والأحكام والحلال والحرام أمور وضعية، وأصحاب الشرائع رجال لهم حكم عملية، وربما يؤيدون من عند واهب الصور بإثبات أحكام ووضع حلال وحرام مصلحة للعباد وعمارة للبلاد، وما يخبرون عنه من الأمور الكائنة فى حال من أحوال عالم الروحانيين من الملائكة والعرش والكرسى واللوح والقلم فإنما هى أمور معقولة لهم قد عبروا عنها بصور خيالية جسمانية، وكذلك ما يخبرون به من أحوال المعاد من الجنة والنار، مثل قصور وأنهار وطيور وثمار فى الجنة فترغيبات للعوام بما تميل إليه طباعهم، ومثل سلاسل وأغلال وخزى ونكال فى النار فترهيبات للعوام بما تنزجر عنه طباعهم.. وإلا ففى العالم العلوى لا يتصور أشكال جسمانية وصور جرمانية» أهـ.

ونقول إن هؤلاء الإلهيين يمثلهم فى الفكر اليونانى القديم سقراط وأفلاطون وأرسطو.

غير أن سقراط برز فى تحديد المفاهيم العقلية والمعانى الكلية والاهتمام بقيم الإنسان فى مواجهة السوفسطائيين، ولذا قيل إن سقراط أول فيلسوف إنسانى وأول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، بمعنى أن الاهتمام الأول لديه هو البحث عن قيم الإنسان وفضائله ومفاهيمه العقلية..

وأما أرسطو فقد كان رأيه فى النفس غامضا وتناقض شراح أرسطو بين مغايرة النفس للبدن أم لا، وبين خلودها أو فنائها. ولسنا فى مقام التمحيص الآن وإنما نريد أن نقول: إن أفلاطون هو

---

(١) الملل والنحل - تحقيق محمد كيلانى جـ ٢ ص ٣.

أكبر الفلاسفة الإلهيين القدامى وضوحًا فى رأيه ومذهبه المتكامل وأكثرهم تأثيرًا فى الفلسفة الإسلامية فى مباحث النفس خاصة ولذا سنعرض رأيه بشيء من التفصيل إن شاء الله.

وسنختار من بين الإسلاميين الشيخ الرئيس ابن سينا فهو علامة القوم كما يقول الشهرستانى وطريقته أدق ونظره إلى الحقائق أغوص «وكل الصيد فى جوف الفرا».

وقد أتى على رأى الفلاسفة من القواعد الإمام الغزالى فى كتابه «تهافت الفلاسفة» ثم كر عليه بالنقض الإمام ابن رشد فى كتابه «تهافت التهافت» ولذا سنحاول بتوفيق الله أن نلقى ضوءا على هذه الملحمة الفلسفية.

رأى أفلاطون

يكاد الباحثون أن يجمعوا على تسمية هذا الفيلسوف بأفلاطون الإلهى لأنه - كما يقول الدكتور محمد غلاب[1] - أول مؤله منهجى وضع الألوهية كنظرية فلسفية فى بلاد الإغريق بل إن تاريخ البرهنة الفلسفية على وجود الإله قد بدئ بعصر أفلاطون.

وقد قلت فى بداية البحث إن البعث مرتبط بالألوهية ارتباطا وثيقا.

ويلخص الشهرستانى رأى أفلاطون فيقول[2]:

والعالم عنده عالمان: عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية كالمرآة المجلوة التى تنطبع فيها صور المحسوسات فإن الصور فيها مثل الأشخاص وكذلك العنصر فى ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها غير أن الفرق المنطبع فى المرآة الحسية صور خيالية ترى أنها موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس فى الحقيقة كذلك، وأن المتمثل فى المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هى موجودة بالفعل تحرك الأشخاص ولا تتحرك فنسبة الأشخاص إليها كنسبة الصور فى المرآة إلى الأشخاص فلها الوجود الدائم ولها الثبات القائم وهى تتمايز فى حقائقها تمايز الأشخاص فى ذواتها..

ثم قال: وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حسا ومحسوسا وعقلا ومعقولا وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات وهى محدودة ومحصورة بالزمان والمكان فيجب أن نشاهد بالعقل جميع المعقولات وهى غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان فتكون مثلا عقلية» أهـ

---

(١) مشكلة الألوهية ص ٣٣.

(٢) الملل والنحل جـ ٢ ص ٨٩.

ونستطيع أن نجعل رأى أفلاطون فى البعث هكذا:

١ - النفس الإنسانية لها وجود متقدم على البدن فى عالم المثل وهى تحيط علما بكل ما يجانسها فى هذا العالم.

٢ - النفس الإنسانية قديمة قدم عالم المثل الذى هو العالم الحقيقى وما العالم الحسى إلا ظل من آثاره وهو حادث.

٣ - المعرفة تذكر ما كان فى عالم المثل والجهل نسيان بسبب الكثافة المادية التى حلت فيها النفس.

٤ - إن النفس كانت فى عالم الذكر - كما يحكى الشهرستانى - مغتبطة مبتهجة بعالمها وما فيه من الروح والبهجة والسرور فأهبطت إلى العالم حتى تدرك الجزئيات وتستفيد ما ليس لها بذاتها بواسطة القوى الحسية فسقطت رياشها قبل الهبوط فهبطت حتى يستوى ريشها وتطير إلى عالمها بأجنحة مستفادة من هذا العالم.

وظاهر من مقالة الشهرستانى هذه أن الهبوط كان لاستفادة أشياء جديدة من عالم الجزئيات ولكن الدكتور غلاب أورد نبذة من محاورة «فيدروس» نفهم منها أن الهبوط كان لعجزها عن اللحاق بمشاهدة الحقائق فيقول[1]: غير أن هذه النفوس جميعها أثناء تزاحمها على مشاهدة الحقائق يتصادم بعضها بالبعض الآخر فتفقد أجنحتها التى كانت تسمو بها فى عالم السماء فتهوى جميعا إلى الأرض وتحل فى أجسام بنى الإنسان.

٥ - البعث هو عودة الروح إلى عالمها بعد مفارقة البدن الذى هو من جملة المركبات التى مصيرها الانحلال والفناء.

وقد كان لهذه النظرية الأفلاطونية كبير الأثر فى الفلسفة الإسلامية وخاصة لدى المتصوفة.

---

(١) المعرفة عند مفكرى المسلمين ص ١٦٧.

رأى الفلسفة الإسلامية فى البعث
كما يشرحه ابن سينا

١- نشأة النفس:

راجع الفصل الثانى من الباب الأول

٢ - بقاء النفس:

بقاء النفس بعد موت الإنسان قضية متفق عليها بين الملين ولا خلاف بين المسلمين فى بقائها إلى النفخة الأولى ونعيمها أو عذابها فى القبر..

والمختار عند أهل الحق - كما يقول العلامة الباجورى[1] - هو ما قاله السبكى من خلود الروح وعدم فنائها لأن الأصل فى كل باق استمراره حتى يظهر ما يصرف عنه، والدليل على بقائها الاستصحاب فتكون من المستثنى فى قوله تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[2].

والفلاسفة مجمعون أيضا على بقاء النفس وخلودها حتى إن الغزالى نفسه - وهو الذى شاق الفلاسفة رأيهم - يقول به أيضا.

وندع ابن سينا يشرح لنا رأى الفلاسفة فيقول[3]: اعلم أن الجوهر الذى هو الإنسان فى الحقيقة لا يفنى بعد الموت، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن بل هو باق لبقاء خالقه تعالى، وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن لأنه محرك هذا البدن ومدبره ومتصرف فيه، والبدن منفصل عنه تابع له، فإذا لم يضر مفارقته عن الأبدان وجوده..

ولأن النفس من مقولة الجوهر ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف، والإضافة أضعف الأعراض، لأنه لا يتم وجودها بموضوعها بل يحتاج إلى شىء آخر وهو المضاف إليه، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان أضعف الأعراض المحتاج إليه؟!

---

(١) حاشية الباجورى على الجوهرة.

(٢) سورة الزمر آية ٦٨.

(٣) أحوال النفس ص ١٨٦.

ومثاله أن يكون مالكا لشيء متصرفا فيه فإذا بطل ذلك الشيء لم يبطل المالك ببطلانه، ولهذا فإن الإنسان إذا نام بطلت عنه الحواس والإدراكات وصار ملقى كالميت، فالبدن النائم فى حالة شبيهة بحال الموتى كما قال رسول الله ﷺ النوم أخو الموت، ثم إن الإنسان فى نومه يرى الأشياء ويسمعها بل يدرك الغيب فى المنامات الصادقة بحيث لا يتيسر له فى اليقظة.

فذلك برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن بل يضعف بمقارنة البدن ويتقوى بتعطيله فإذا مات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن.

٣ - الرأى فى عودة البدن:

فى كتاب «أحوال النفس» الذى يعد خلاصة الأبحاث النفسية لابن سينا، والتى ضمنها عدة كتب مثل الشفاء والنجاة والإشارات - فإننا نجده فى الفصل الخامس عشر (من أحوال النفس) يتحدث عن السعادة والشقاوة للنفس بعد فراق البدن..

فإذا استطلعنا رأيه فى السعادة البدنية نراه يفتتح هذا الفصل بقوله:

«يجب أن نعلم أن المعاد منه ما هو مقبول من الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلا عن طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذى للبدن عند البعث، وخيرات البدن وشروره معلومة لا تحتاج إلى أن تعلم، وقد بسطت الشريعة الحقة التى أتانا بها سيدنا ومولانا ونبينا محمد ﷺ حال السعادة والشقاوة التى بحسب البدن.

ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهانى وقد صدقته النبوة وهو عن السعادة والشقاوة البالغتان اللتان للأنفس إلا أن الأفهام تقصر عنها لما نوضح من العلل».

من هذا النص نفهم أن ابن سينا يعتقد أن البعث البدنى لا يثبت إلا بالشرع ولا مجال للعقل فيه بدليل قوله «ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة».

وعندما تكلم عن البعث الروحانى وصفه بأنه قائم على البرهان العقلى وتصديق النبوة..

وحيث إن البعث البدنى بعيد عن المدخل العقلى وإن كان قد أتى به الشرع فهنا تظهر قضية كبيرة وهى قضية التأويل للنص الدينى، وهى قضية خطيرة فى الفلسفة الإسلامية وخاصة لدى ابن رشد وسنعرج عليها فيما بعد إن شاء الله.

فإذا استطردنا فى البحث مع ابن سينا عن السعادة والشقاوة نجده بالنسبة للبعث البدنى يؤكد هذه الحقائق:

١ - إن الحكماء الإلهيين لا يلتفتون إلى السعادة البدنية ولا يستعظمونها بجنب السعادة العقلية.

٢ – إن الهيئة البدنية مضادة لجوهر النفس، مؤذية لها وعائقة عن كمالها..

٣ – النفوس السعيدة تستشعر سعادتها بزوال البدن وفقد عائق المادة، والنفوس الشقية تستشعر شقاوتها بفراق البدن والانفصال التام عنه.

***

وفى هذا الفصل الذى استحوذ على صفحات كثيرة من رقم ١٢٧ – ١٤٠ لا نجد حديثًا عن البعث البدنى إلا الأسطر الأربعة الأولى التى ذكرناها سابقًا..

وكل ما ذكر بعد – فهو شرح وتوضيح وتقريب للبعث الروحانى وكيفية تصوره.. بل كل ما فيه يناقض البعث البدنى ويؤكد عدم وجوده.

ومما يقطع الشك باليقين رسالة لابن سينا تسمى «رسالة أضحوية فى أمر المعاد».

ينكر فيها البعث الجسمانى إنكارا تامًا ويؤكد استحالته.

٤ – الأصول العامة لمعاد النفس:

قدم ابن سينا حديثه عن السعادة والشقاوة للنفس بالتركيز على أصول عامة يجب أن تعلم أولاً حتى يتسنى فهم مذهبهم فى السعادة والشقاوة.. وهذه الأصول العامة يمكن تلخيصها فيما يلى:

١ – إن لكل قوة نفسانية لذة وخيرًا يخصها وأذى وشرًا يخصها.. فمثلا لذة الشهوة أن يتأدى إليها كيفيات محسوسة من الحواس الخمسة، ولذة الغضب الظفر، ولذة الحفظ تذكر الأمور الموافقة الماضية؛ وأذى كل واحدة منها ما يضادها.

٢ – هذه القوى مراتبها فى الحقيقة مختلفة، فالذى كماله أفضل وأتم، والذى كماله أكثر، والذى كماله أدوم..

٣ – وجود الكمال والسعادة غير متوقف على تصور كيفيته ولا شعور لذائذه، وإنما الشوق إلى الكمال والسعادة هو المتوقف على الشعور بذلك مثل العنين فإنه متحقق أن للجماع لذة ولكنه لا يشتهيه ولا يحن نحوه ولا يتخيله، وكذلك حال الأكمه عند الصور الجميلة، والأصم عند الألحان المنتظمة.

٤ – إن الكمال قد يتيسر للمرء ولكن قد يؤثر ضده عليه لمانع مثل المريض يكره الطعم الحلو ويشتهى مر المذاق..

٥ – إن النفس قد تكون مكتسبة لضد ما هو كمالها ولا تحس به ولا تنفر عنه حتى إذا زال العائق تأذت كل الأذى ورجعت إلى غريزتها مثل المرور فربما لا يحس بمرارة فمه إلى أن يصلح مزاجه وتتنقى أعضاؤه، فحينئذ ينفر عن الحال العارضة له..

هذه أصول عامة قدمها ابن سينا ليقيم عليها بناء تصوره للسعادة والشقاوة..

فبالنسبة للأصل الأول: سعادة النفس وكمالها أن تنقلب عالمًا عقليًا مرتسما فيها صورة الكل مبتدئا من مبدأ الكل وسالكًا إلى الجواهر الشريفة، وتشاهد الحسن المطلق والخير المطلق والجمال الحق..

وبالنسبة للأصل الثاني: فهذه المرتبة للنفس لا تتطاول إليها مرتبة أخرى بل لا نسبة لها بوجه من الوجوه..

وبالنسبة للأصل الثالث: فنحن لا نحس بتلك السعادة لانغماسنا في أبداننا ورذائلنا، ولا نحنّ إليها اللهم إلا أن نكون قد خلعنا ربقة الشهوة والغضب وأخواتهما عن أعناقنا، فحينئذ نطالع خيالاً طفيفًا ضعيفًا.

وبالنسبة للأصلين الرابع والخامس فإنا إذا انفصلنا عن البدن وكانت النفس قد تنبهت في البدن لكمالها إلا أن اشتغالها به قد أنساها ذاتها ومعشوقها – فإنها تشعر بالبلاء العظيم بعد فراق هذا العائق..

وإن كانت القوة العقلية بلغت من النفس حدًا من الكمال يمكنها به إن فارقت البدن أن تستكمل سعادتها فإنها تشعر بلذة أجل من كل لذة وأشرف.

***

٥ – الطريق إلى السعادة:

إذا تساءلنا ما الطريق إلى السعادة؟ نجد الشيخ الرئيس يشرحه لنا في رسالة خاصة[1] نستجلي منها الحقائق التالية:

١ – تكمل السعادة للنفس بالعلم بالله والعمل لله أو بتعبير آخر التزكية العلمية والتزكية العملية.

٢ – التزكية العملية تحصل بممارسة العلوم الحكمية النظرية فتحصل ملكة للنفس تتهيأ بها لاستحضار المعقولات كلها وتصير النفس كمرآة صقيلة تنطبع فيها صور الأشياء كما هي عليها من غير اعوجاج.

---

(١) أحوال النفس ص ١٩٦.

٣ – التزكية العملية تحصل بالمواظبة على الوظائف الشرعية والسنن الملية من العبادات البدنية والمالية والمركبة منهما فإن فى الوقوف عند مرضيات الشرع وحدوده والإقدام على امتثال أوامره – أثرًا نافعًا فى تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس الناطقة المطمئنة.

٤ – إذا مارس الإنسان التزكية العلمية والعملية اعتدل مزاجه وكان أكثر استعدادًا لقبول الملكات الفاضلة وقبول الفيض الإلهى إلا أنه لا يخلص من شوائب الأضداد، ومادامت النفس متعلقة بالبدن فلا تنكشف له المعقولات بأسرها وجملتها تمام الانكشاف.

٥ – عندما تنقطع علاقة النفس بالبدن بسبب الموت – والنفس قد اكتسبت الملكات الفاضلة العلمية والعملية – فقد زال المانع عن قبول الفيض الإلهى بالكلية – وهو علاقة التصرف فى البدن – فيقبل الفيض الإلهى وينكشف له ما كان محجوبًا عنه قبل المفارقة وتحصل المشابهة بالعقول المجردة..

٦ – مراتب النفوس فى السعادة أو الشقاوة:

أولاً: النفوس القدسية[1]:

وهى الكاملة بالعلم والحكمة والعمل الصالح، وهم من عناهم القرآن بقوله:

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ ﴾[2]. ويلتحقون بعالم العقول ويتنزهون عن أن يقارنوا درن الأجسام ونفوس الأفلاك مع جلالة قدرها، وينجذبون إلى الأنوار الإلهية والملأ الأعلى انجذاب إبرة إلى جبل عظيم من المغناطيس وينادون من الملأ الأعلى

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠ ﴾[3].

ثانيًا: أصحاب اليمين:

وهم فى المرتبة الوسطى يرتفعون عن عالم الاستحالة ويتصلون بنفوس الأفلاك ويتطهرون عن دنس عالم العناصر ويشاهدون النعيم الذى خلقه الله تعالى فى السموات من الحور العين وألوان الأطعمة اللذيذة وألحان الطيور التى تقصر أوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها كما قال عليه السلام حكاية عن ربه «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٧ بتصرف.

(٢) سورة الواقعة آية ١٠ ، ١١.

(٣) سورة الفجر آية ٢٧ ، ٣٠.

على قلب بشر» فهذه مرتبة المتوسطين من الناس ولا يبعد أن يتمادى أمرهم إلى أن يستعدوا للفوز بوصول الدرجة العليا فينغمسوا فى اللذات الحقيقية واصلين إلى السابقين بعد انقضاء دهور تأتى عليهم.

ثالثا: أصحاب الشمال:

وهم النازلون فى المرتبة السفلى، والمنغمسون فى بحور الظلمات الطبيعية، المنتكسون فى قعر الأجرام العنصرية المنتحسون فى دار البوار، وهم الذين ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾[1].

وفى موضع آخر من كتاب أحوال النفس تعرض ابن سينا لنفوس البُله والعامة فيقول[2]:

أما النفوس البله التى لم تكتسب الشوق فإنها إذا فارقت البدن وكانت غير مكتسبة للهيئات البدنية الردية صارت إلى سعة من رحمة الله تعالى ونوع من الراحة.

وإن كانت مكتسبة للهيئة البدنية الردية وليس عندها هيئة غير ذلك ولا معنى يضاده وينافيه فتكون لا محالة ممنوة بشوقها إلى مقتضاها فتتعذب عذابًا شديدًا بفقد البدن ومقتضيات البدن من غير أن يحصل المشتاق إليه لأن آلة الذكر قد بطلت وخُلق التعلق بالبدن قد بقى.

أما النفوس العامة وهى التى تعتقد فى العاقبة اعتقادات مادية بقدر ما يمكن أن تخاطب به فيزعم ابن سينا أنهم إذا فارقوا البدن ولم يكن لهم معنى جاذب إلى الجهة التى هى فوقهم، لا كمال فيسعدوا تلك السعادة، ولا شوق كمال فيشقوا تلك الشقاوة، بل كل هيئاتهم النفسانية متوجهة نحو الأسفل، منجذبة إلى الأجسام - فتشاهد النفس جميع ما قيل لها فى الدنيا من أحوال القبر والبعث والخيرات الأخروية عن طريق التخيل بواسطة آلة من الأجرام السماوية.

أما الأنفس الردية فتتخيل العقاب المصور لها فى الدنيا كذلك..

ويزعم ابن سينا أن الصور الخيالية ليست تضعف عن الحسية بل تزداد عليها تأثيرًا أو صفاء كما يوجد فى المنام؛ وذلك أشد استقرارا من الموجودة فى المنام بحسب قلة العوائق وتجرد النفس وصفاء القابل.

---

(١) سورة الفرقان آية ١٣ ، ١٤.

(٢) ص ١٣٨ بتصرف.

شبهات المنكرين للمعاد الجسمانى
كما صورها الإمام الغزالى

رأى الغزالى فى الفلاسفة:

بمقياس الباحث النفسى وصف الغزالى الفلاسفة بأنهم قوم[1] تجملوا باعتقاد الكفر تحيزا إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطا فى سلكهم وترفعا عن مسايرة الجماهير والدهماء، واستنكافا من القناعة بأديان الآباء ظنًا بأن إظهار التكايس فى النزوع عن تقليد الحق بالشروع فى تقليد الباطل جمال، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد حزق وخبال فأية رتبة فى عالم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليدا بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقا (أى تقليدا) دون أن يقبله خبرًا وتحقيقا.

تحديد محل النزاع :

فى مقدمة (التهافت) حدد الغزالى الخلاف مع الفلاسفة فى ثلاثة أقسام نلخصها فيما يلى:

القسم الأول :

يرجع النزاع فيه إلى لفظ مجرد كتسميتهم صانع العالم — تعالى عن قولهم — جوهرا مع تفسيرهم الجوهر بأنه الموجود لا فى موضوع ولم يريدوا بالجوهر المتحيز.

وقد رأى الغزالى عدم الخوض فى هذا القسم وهو يبحث من العقائد وإنما يرجع البحث فيه إلى اللغة وإطلاقها، وإلى الشرع وإجازته.

القسم الثانى:

ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلا من أصول الدين. وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم منازعتهم فيه كقولهم إن الكسوف القمرى عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس.

وهذا الفن أيضا ليس يخوض الغزالى فى إبطاله إذ لا يتعلق به غرض، ومن ظن أن المناظرة فى إبطاله من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره.

---

(١) تهافت الفلاسفة – تحقيق د. سليمان دنيا ص ٧٤.

القسم الثالث:

ما يتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين كالقول فى حدوث العالم وصفات الصانع وبيان حشر الأجساد فقد أنكروا ذلك، فهذا الفن ونظائره، هو الذى ينبغى أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه.

أمانة الغزالى:

ليس هناك ريب فى أن الغزالى قد حمل على الفلسفة والفلاسفة حملة شعواء حيث حاربها بسلاحها الذى تعتمد عليه مما كان له كبير الأثر فى غروب شمسها فلم يأت بعد الغزالى فيلسوف مجدد، وكل من جاء فهو شارح أو مختصر لمؤلفات الشيخ الرئيس، وظل الأمر كذلك حتى صحت الفلسفة الإسلامية صحوة الموت على يد فيلسوف قرطبة أبى الوليد ابن رشد فى الأندلس.

ومع هذا العداء المستحكم فقد كان الغزالى أمينا فى نقل آراء خصومه، دقيقا فى نسبتها لأصحابها، محايدًا فى عرض وجهة نظرهم.

ويسوق لنا الدكتور سليمان دنيا فى تقديمه لكتاب (التهافت) أنه خامره شعور نفسى مؤداه: أليس يجوز أن يدلس الغزالى على خصومه فيعرض أفكارهم فى صورة ركيكة مشوهة حتى يتأتى له ردها وإبطالها والتشنيع عليها؟! ومما زاد الأمر ريبة فى نفس الدكتور سليمان دنيا أن الغزالى يتهم الفلاسفة بإنكار حشر الأجساد، والقول باستحالته مع أن ابن سينا — على حد تعبير الدكتور — يصرح بالبعث الجسمانى فى كتابيه النجاة والشفاء..

ثم يقول الدكتور سليمان دنيا[1]:

وهكذا تصورت الرجلين فى ذلكم الوقت.

أحدهما (ابن سينا) مضطرب متردد.

والآخر (الغزالى) مفتات متهجم.

ثم لبثت غير مطمئن إلى هذا التصوير إلى أن ساقت لى الصدفة مخطوطا صغيرًا لابن سينا عنوانه (رسالة أضحوية فى أمر المعاد) فلما قرأته وجدته صريحا فى إنكار البعث الجسمانى ووجدته يشتمل على نفس الدليل الذى حكاه الغزالى فى التهافت على لسان الفلاسفة.

---

(١) ص ٢٣.

بعد هذا يحق لنا أن نساير الإمام الغزالى فى حكايته لشبهات المنكرين للمعاد الجسمانى، وسنعرضها إن شاء الله بتصرف فى التنظيم والتبويب ثم نحاول تمحيصها والتعقيب عليها.

والله المستعان.

الشبهة الأولى

البعث الجسمانى موقوف على إعادة المعدوم، وما عدم لا يعقل عوده، واستئناف الخلق إيجاد لمثل ما كان لا لعين ما كان، بل العود المفهوم هو الذى يفرض فيه بقاء شىء وتجدد شىء كما يقال عاد فلان إلى الإنعام أى أن المنعم باق وترك الإنعام ثم عاد إليه أى عاد إلى ما هو الأول بالجنس ولكن غيره بالعدد، فيكون عودا بالحقيقة إلى مثله لا إليه، ويقال: فلان عاد إلى البلد أى بقى موجودا خارج البلد وقد كان له كون فى البلد فعاد إلى مثل ذلك.. فإن لم يكن شىء باقيا وشيئان متعددان متماثلان يتخللهما زمان لم يتم اسم العود.

الجواب :

إن المعدوم ممكن يستوى طرفا وجوده وعدمه وإلا لما وجد أولا، ويستحيل — كما يقول صاحب المقاصد[1] كون الشىء ممكنا فى وقت ممتنعا فى وقت للقطع بأنه لا أثر للأوقات فيما هو بالذات، فالوجود الأول إن أفاده زيادة استعداد لقبول الوجود بناء على اكتساب ملكة الاتصاف بالفعل فقد صار قابليته للوجود ثانيا أقرب وإعادته على الفاعل أهون، وإن لم يفده زيادة استعداد فمعلوم بالضرورة أنه لا ينقص عما هو عليه بالذات من قابلية الوجود فى جميع الأوقات.

واتصاف الشىء بالوجود السابق واللاحق نظرا إلى وقتين وتخلل العدم بينهما لا ينافى اتحاده بالشخص كما أن الوجود قد تخلل بين العدم السابق واللاحق وهما سواء.. والوقت ليس من المشخصات فإننا قاطعون بأن هذا الكتاب هو بعينه الذى كان بالأمس حتى إن من زعم خلاف ذلك نسب إلى السفسطة — كما يقول صاحب المقاصد — وتغاير الاعتبارات والإضافات لا ينافى الوحدة الشخصية.

هذا وقد قلت سابقا فى الحديث عن المذهب المادى إن كل ما يعترى الإنسان هو التفتت والتفرق، والمادة تتشكل ولا تفنى فالله سبحانه يفرق الأجزاء ويخرجها عن الصفة التى كانت عليها ثم يؤلف بينها مرة أخرى[2].

---

(١) شرح المقاصد حـ ٥ ص ٨٣.

(٢) هناك خلاف بين المتكلمين القائلين بحشر الأجساد بأن ذلك إيجاد بعد الفناء أو جمع بعد تفرق الأجزاء وسنتعرض له إن شاء الله عند الحديث عن مذهب المتكلمين.

.ومع التسليم الجدلى فإننا نؤمن بأن النفس باقية، والإنسان هـو النفس بالحقيقة فتعاد إلى بدن سواء كان هو الأول بعينه أو مثلا له، ولا ضير فى ذلك كما يقال أعد كلامك أى تلك الحروف بتآليفها وهيئاتها، ومذهب أكثر المتكلمين يفيد أن المعاد مثل المبدأ لا عينه.

الشبهة الثانية

إن رد النفس إلى بدن إنسانى مثل الأول لا عينه هو قول بالتناسخ لأنه هو اشتغال النفس بعد خلاصها من البدن بتدبير بدن آخر غير البدن الأول.. وما يدل على بطلان التناسخ يدل على بطلان هذا الرأى.

الجواب:

لابد من تحديد المفاهيم قبل الحكم.. فما التناسخ؟ يقول الشهرستانى[1]: إن التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية له، ويحدث فى كل دور مثل ما حدث فى الأول، والثواب والعقاب فى هذه الدار لا فى دار أخرى لا عمل فيها، والأعمال التى نحن فيها إنما هى أجزية على أعمال سلفت منا فى الأدوار الماضية، فالراحة والسرور والفرح والدعة التى نجدها هى مرتبة على أعمال البر التى سلفت منها فى الأدوار الماضية، والغم والحزن والضنك والكلفة التى نجدها هى مرتبة على أعمال الفجور التى سبقت منها، وكذا كان فى الأول وكذا يكون فى الآخر.

هذا هو التناسخ..

أما التصوير الذى صورناه وهو عودة النفس إلى بدن مثل الأول فى اليوم الآخر لتنال ثوابها وعقابها على ما سلف منها فى الدنيا من غير تكليف جديد — ليس من التناسخ الباطل الذى صوره الشهرستانى فى شىء.

فإن سميتم هذا تناسخا فلا مشاحة فى الأسماء كما يقول الغزالى[2] فما ورد الشرع به يجب تصديقه فليكن تناسخا ونحن إنما ننكر التناسخ فى هذا العالم وأما البعث فلا ننكره سمى تناسخا أو لم يسم تناسخا.

وقد ثبت علميا الآن أن الجسم الإنسانى يخضع لعملية تغيير مستمر بحيث يأتى عليه وقت لا تبقى فيه خلية قديمة لأن خلاياه قد تجددت كلها ومع هذا فلا يعد تناسخا بإجماع..!!

---

(١) الملل والنحل تحقيق الكيلانى جـ ٢ ص ٥٥.

(٢) تهافت الفلاسفة – تحقيق د. دنيا ص ٣٠٠.

الشبهة الثالثة

المواد القابلة للكون والفساد متناهية، والأنفس المفارقة للأبدان غير متناهية، وقد تتداخل الأبدان بطريق التغذية وتتمايز النفوس.. فلا تفى الأبدان لو حشرت بعدد النفوس.

الجواب:

هذه الشبهة قائمة على أن العالم قديم بالنوع حادث بالشخص، فالنفوس نوع من أنواع العالم قديمة غير متناهية على زعمهم، والأبدان غير المتناهية تفتقر إلى امتداد غير متناه وقد قام البرهان على تناهى الأبعاد عند الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وعلى هذا فمادة الأبدان لا تفى بعدد النفوس..

والقول بقدم العالم لم يقم عليه دليل عقلى قاطع، وكل ما فيه وهم وافتراض..

وقصة صدور العالم عن الله ممثلة فى العقول العشرة على رأى الفلاسفة هى أسطورة خرافية وثنية تلقفها الفلاسفة فى المحيط الإسلامى عن أساطير اليونان وأضفوا عليها من المسحة العقلية ما لا يتناسب وجلال الله وكرامة العقل.

فالنفوس متناهية.. وإن سلم أنها أكثر، فقدرة الله تعالى صالحة للخلق والإبداع ولا يعجز الله شىء فى الأرض ولا فى السماء وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

الشبهة الرابعة

الإنسان المبعوث المحشور لا يمكن أن يتجدد بدنه دون أسباب وأطوار، فأسبابه هو إلقاء النطفة فى رحم حتى يستمد من دم الطمث، وأطواره هى العلقة والمضغة ثم يكون جنينا ثم طفلا ثم شابا ثم كهلا وهكذا فانقلابه إنسانا دون تردده فى هذه الأسباب محال، فيكون البعث محالا.

الجواب:

إن ربط البعث بهذه الأسباب والأطوار تحكم لا دليل عليه، ونحن نؤمن بأن آدم عليه السلام قد خلق من غير هذه الأسباب والأطوار جميعا وأن عيسى عليه السلام قد مر بهذه الأطوار من غير الأسباب المألوفة، فمرجع الأمر كله إلى الفاعل المختار.

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ثم من أين لهم أن أسباب الوجود منحصرة فيما شاهدوه؟!.

ولم لا يجوز أن يكون هناك منهاج للإحياء غير ما هو مشاهد؟!

يقول الغزالى [1]:

لو خلق إنسان عاقلاً ابتداء وقيل له: إن هذه النطفة القذرة المتشابهة الأجزاء تنقسم أجزاؤها المتشابهة فى رحم آدمية إلى أعضاء مختلفة لحمية وعصبية وعظمية وعرقية وغضروفية وشحمية فيكون منها العين على سبع طبقات مختلفة فى المزاج، واللسان والأسنان على تفاوتها فى الرخاوة والصلابة مع تجاورهما وهلم جرا.. إلى البدائع التى فى الفطرة — لكان إنكاره أشد من إنكار الملاحدة حيث قالوا: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾.

وقد ورد فى بعض الأخبار أنه يغمر الأرض فى وقت البعث مطر، قطراته تشبه النطف وتختلط بالتراب.. فأى بعد فى أن يكون فى الأسباب الإلهية أمر يشبه ذلك ونحن لا نطلع عليه، ويقتضى ذلك انبعاث الأجساد واستعدادها لقبول النفوس المحشورة؟!

وهل هذا الإنكار مستند إلا الاستبعاد المجرد؟!.

الشبهة الخامسة

الفعل الإلهى له مجرى واحد مضروب لا يتغير، لذلك قال تعالى:

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾. فوجود الإنسان بطريق التوالد والتناسل أزلاً وأبدا، ومحال أن يحصل التبديل لسنة الله، لأن الفعل الإلهى يصدر عن المشيئة الإلهية، والمشيئة أزلية على سنن واحد لا يختلف بالإضافة إلى الأزمان..

الجواب:

إن مرجع الخلاف معهم هنا إلى نظرية السببية، والقول فيها أن الله سبحانه قد رتب الأسباب والمسببات ترتيبا عاديا يجوز تخلفه عند الإرادة الإلهية فالنار ليس من طبعها الإحراق فلا يمكن الكف عنه، والسكين ليس من طبعها القطع فلا يمكن المنع منه.. وليس هناك دليل على أن الأسباب هى الفاعلة وحدها إلا مشاهدة حصول الاحتراق مثلاً عند ملاقاة النار: وهذا لا ينهض دليلاً على الفاعلية، فالوجود عند الشىء — كما يقول الغزالى — لا يدل على أنه موجود به..

وقد تخرق العادة معجزة لنبى أو كرامة لولى.

---

(١) تهافت الفلاسفة ص ٣٠٣.

وإرادة الله تعالى قديمة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، ولا بعد فى العقل وضع ثلاثة أقسام[1]:

أن يكون الله تعالى موجودًا ولا عالم..

١ — أن يخلق العالم على النظام المشاهد..

٢ — ثم يستأنف نظامًا ثانيًا وهو الموعود به فى الجنة.

٣ — ثم يعدم الكل حتى لا يبقى إلا الله تعالى وهو ممكن لولا أن الشرع قد ورد بأن الثواب والعقاب والجنة والنار لا آخر لها.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٦.

دفاع فيلسوف قرطبة
ابن رشد

تمهيد:

انتهى الغزالى فى كتابه «تهافت الفلاسفة» إلى سؤال مهم أورده فى خاتمته وهو:

فإن قال قائل قد فصلتم مذاهب هؤلاء أفتقطعون القول بتكفيرهم ووجوب القتل لمن يعتقد اعتقادهم؟!

قلنا: تكفيرهم لابد منه فى ثلاث مسائل: إحداها مسألة قدم العالم، وقولهم إن الجواهر كلها قديمة، والثانية قولهم إن الله تعالى لا يحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص، والثالثة إنكارهم بعث الأجساد وحشرها، فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الإسلام بوجه، ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.

هكذا انتهى الغزالى فى موقفه مع الفلاسفة، وهو موقف جد خطير من شأنه أن يزلزل أفكارا ويهدم صروحًا، ويقلب أفهامًا، ويطوى أعلامًا.

ومن هنا وقفت الفلسفة الإسلامية فى قفص الاتهام ليس فقط فى بعض آرائها بل فى كل آرائها، فالأقسام التى ذكر الغزالى أنها لا تتعلق بالدين ولا تمس أصلاً من أصوله لم يخل دراستها من آفات القبول أو الرد..

فلابد إذن أن تدافع الفلسفة الإسلامية عن نفسها وتعطى حق توضيح آرائها، وقد قام بهذه المهمة خير قيام فيلسوف قرطبة أبو الوليد محمد بن رشد فى كتابه «تهافت التهافت» الذى يقول فى مفتتحه:

فإن الغرض فى هذا القول أن نبين مراتب الأقاويل المثبتة فى كتاب «التهافت» لأبى حامد.. فى التصديق والإقناع وقصور أكثرها عن مرتبة اليقين والبرهان.

وسنحاول - بعون الله - أن نستوضح رأى ابن رشد فى قضية البعث من كتابيه «تهافت التهافت» و «مناهج الأدلة».

مزاعم:

أنكر ابن رشد ما ذهب إليه الغزالى من أن الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد وقال[1]:

وهذا شيء ما وجد لواحد ممن تقدم فيه قول، والقول بحشر الأجساد أقل ماله منتشر فى الشرائع ألف سنة، والذين تأدت إلينا عنهم الفلسفة هم دون هذا العدد من السنين، وذلك أن قول من قال بحشر الأجساد هم أنبياء بنى إسرائيل الذين أتوا بعد موسى عليه السلام، وذلك بين من الزبور ومن كثير من الصحف المنسوبة لبنى إسرائيل، وثبت ذلك أيضًا فى الإنجيل وتواتر القول به عن عيسى عليه السلام، وهو قول الصابئة وهذه الشريعة قال أبو محمد بن حزم إنها أقدم الشرائع..

وهذا الزعم من ابن رشد لا دليل عليه..

وهناك زعم آخر فى مناهج الأدلة يرى فيه أن الشرائع لم تختلف فى حقيقة المعاد وصفة وجوده وإنما اختلفت فى طرق التمثيل للجمهور ثم يقول[2] «وذلك أن من الشرائع من جعله روحانيًا أعنى للنفوس ومنها من جعله للأجسام والنفوس معًا».

وهذا افتراء آخر ولا ندرى ما الشرائع السماوية التى تحدثت للناس عن معاد روحانى فقط فى حين يقول كما سبق إن القول بحشر الأجساد منتشر فى الشرائع وتواتر القول به عن عيسى وأنبياء بنى إسرائيل؟

سعادة الإنسان:

- الإنسان أشرف من كثير من الموجودات.
- الإنسان لم يخلق عبثًا.

قضيتان اتخذهما ابن رشد أساسًا لتحديد سعادة الإنسان، فالكون لم يخلق عبثًا قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[3].

ووجود الغاية فى الإنسان أظهر منها فى جميع الموجودات وقد نبه الله سبحانه عليها فى غير ما آية من كتابه فقال:

---

(١) تهافت التهافت – تحقيق د. سليمان دنيا ص ٨٦٤.

(٢) مناهج الأدلة – تحقيق د. محمود قاسم ص ٢٤١.

(٣) سورة ص آية ٢٧.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1].

وما دام للإنسان غاية فلتكن خاصة به دون سائر الحيوان، وخاصية الإنسان إنما هي من حيث النفس الناطقة، وكمالها في القوة العملية والعلمية.. ثم يقول ابن رشد[2]:

«ولما كان الوحي قد أنذر في الشرائع كلها بأن النفس باقية، وقامت البراهين عند العلماء على ذلك، وكانت النفوس يلحقها بعد الموت أن تتعرى من الشهوات الجسمانية فإن كانت زكية تضاعف زكاؤها بتعريها من الشهوات الجسمانية، وإن كانت خبيثة زادتها المفارقة خبثًا لأنها تتأذى بالرذائل التي اكتسبت وتشتد حسرتها على ما فاتها من التزكية عند مفارقة البدن لأنها ليست يمكنها الاكتساب إلا مع هذا البدن.

وإلى هذا المقام الإشارة بقوله تعالى:

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾[3].

واتفقت الشرائع على تعريف هذه الحال للناس وسموها السعادة الأخيرة والشقاء الأخير..»

هكذا يرى ابن رشد السعادة والشقاء ولا نجد فيه اختلافًا يذكر عن رأى الفلسفة الإسلامية كما صوره ابن سينا وكما بيناه من قبل.. ولهذا لم يتعقب ابن رشد الغزالى فقرة فقرة في هذه المسألة كما فعل في بقية كتابه «تهافت التهافت» بل اكتفى بكلمة عامة..

موقفه من النصوص الدينية:

يقوم رأى ابن رشد على تقسيم الناس إلى عوام وخواص، وتقسيم الشريعة إلى ظاهر ومؤول. والظاهر فرض الجمهور، والمؤول فرض العلماء ولا يحل للعلماء أن يفصحوا بتأويله للجمهور كما قال على رضى الله عنه «حدثوا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله».

وفي قضية البعث التي نحن بصددها يزعم أن المعاد الروحاني لا يفهمه الجمهور، ولا يحرك لديهم بواعث العمل الخير فلابد من تمثيل هذه السعادة والشقاوة العقلية بأشياء مشاهدة لهم، فإعادة النفوس إلى الأبدان هو نوع من التمثيل للعامة فهو يقول[4]:

«فأصحاب الشرائع أخبروا أن الله يعيد النفوس السعيدة إلى أجساد تنعم فيها الدهر كله بأشد المحسوسات نعيمًا وهو مثلا الجنة، وأنه تعالى يعيد النفوس الشقية إلى أجساد تتأذى فيها الدهر كله بأشد المحسوسات أذى وهو مثلاً النار».

---

(١) سورة المؤمنون آية ١١٥.

(٢) مناهج الأدلة ص ٢٤٣.

(٣) سورة الزمر الآية: ٦٥.

(٤) مناهج الأدلة ص ٢٤٤.

والحكمة فى هذا التمثيل يوضحها ابن رشد بقوله: ويشبه أن يكون التمثيل الذى فى شريعتنا هذه أتم إفهامًا لأكثر الناس، وأكثر تحريكا لنفوسهم إلى ما هنالك، والأكثر هم المقصود بالشرائع، وأما التمثيل الروحانى فيشبه أن يكون أقل تحريكا لنفوس الجمهور إلى ما هنالك، والجمهور أقل رغبة فيه وخوفًا له منهم فى التمثيل الجسمانى.

تمويه ومداراة:

حاول ابن رشد فى نهاية كتابه «مناهج الأدلة» أن يجعل البعث مسألة خلافية بين العلماء فى فهم حقيقته وفهم التمثيل الذى يزعم أنه ورد على لسان الشارع..

فذكر أن أهل الإسلام ثلاث فرق:

١ - فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذى ههنا من النعيم واللذة أعنى أنهم رأوا أنه واحد بالجنس وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانقطاع أعنى أن ذلك دائم وهذا منقطع.

٢ - وطائفة رأت أن الوجود متباين وهذه انقسمت قسمين: فطائفة رأت أن الوجود الممثل بهذه المحسوسات هو روحانى وأنه إنما مثل به إرادة البيان، ولهؤلاء حجج كثيرة من الشريعة فلا معنى لتعديدها.

٣ - وطائفة رأت أنه جسمانى ولكن اعتقدت أن تلك الجسمانية الموجودة هناك مخالفة لهذه الجسمانية لكون هذه بالية وتلك باقية ولهذه أيضًا حجج من الشرع.

ثم خلص ابن رشد إلى أن القول بعودة النفوس إلى الأبدان التى كانت فى الدنيا يلزمه محالات مثل أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة فى أوقات مختلفة، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل لأن مادتها واحدة.. وأما إذا فرضت أجسام أخر فليس يلحقها هذه المحالات..

وقد انتهى إلى هذا الرأى أيضا فى كتابه «تهافت التهافت» حيث يقول[1]: إن التى تعود أمثال هذه الأجسام التى كانت فى هذه الدار لا هى بعينها لأن المعدوم لا يعود بالشخص وإنما يعود الموجود لمثل ما عدم لا لعين ما عدم..

وقد فهم بعض الناس أن ابن رشد يقول بالبعث الجسمانى بناء على هذا الرأى وأنه هو الذى ارتضاه لنفسه كما يقول الدكتور محمود قاسم فى تعليق له[2].

ولكنى أبادر فأقول إن رأى ابن رشد هو رأى الفلسفة الإسلامية وهو أن المعاد روحانى فقط وأرشح قولى بما يأتى:

---

(١) ص ٨٧١.

(٢) ص ٢٤٦ من مناهج الأدلة.

أولاً: لم يصرح ابن رشد بنسبة هذا الرأى لنفسه، وإنما كل ما قاله فيه «وأما إذا فرضت أجسام أخر فليس يلحقها هذه المحالات» فالكلام على سبيل الفرض وليس الاعتقاد، وأيضًا قوله قبل ذلك «ويشبه أن يكون هذا الرأى هو أليق بالخواص» لا ينهض دليلاً فالكلام على سبيل الاحتمال.

ثانيًا: رأى ابن رشد الصريح يصوره هو بنفسه فى العبارة التالية[1] «والحق فى هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها بعد ألا يكون نظرًا يفضى إلى إبطال الأصل جملة وهو إنكار الوجود جملة».

ثالثًا: ومما يؤكد هذا المعنى الأخير وهو أن المسألة متروكة للاجتهاد الفردى ما سلكه ابن رشد فى رده على الغزالى فلم يتعرض لآراء الغزالى وانتقاداته على الفلاسفة ليعقب عليها كما فعل فى بقية مسائل الكتاب، وإنما اكتفى بكلمة عامة دون تفاصيل الشبه والرد عليها.

رابعًا: من خلال كتابة ابن رشد تتضح الحقائق التالية:

(أ) النفس باقية ولا تتعطل بفساد الآلة وهى الجسم.

(ب) سعادة الإنسان هى فى كمال نفسه الناطقة.

(جـ) كل ما ورد فى النصوص الدينية من اللذات والآلام الحسية فهو من باب التمثيل للجمهور.

(د) البدن عائق للنفس عن اللذة العقلية.

ولا أظن بعد هذا أننا نجهل رأى ابن رشد فى البعث والمعاد الذى ارتضاه لنفسه وأداه إليه اجتهاده..

وقفة تأمل

بعد استعراض رأى الفلسفة الإسلامية فى البعث كما صوره الشيخ الرئيس ابن سينا، وبعد تصوير الشبهات التى حكاها عن الفلاسفة حجة الإسلام الغزالى، وبعد توضيح فيلسوف قرطبة ابن رشد نستخلص - إذن - الحقيقة التالية:

إن البعث الروحانى هو رأى الفلسفة الإسلامية؛ وحقيقته عودة الروح إلى تجردها عن علائق المادة واتصالها بعالم العقول. ويرتكز هذا القول على أساس من نظرية العقول العشرة. وترتب على هذا الرأى محاولة تطويع النصوص الدينية لتحمل هذا الاتجاه.

ووقفتنا التأملية تستلزم نظرتين:

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧.

الأولى: إلى أساس هذا الرأى وهو القول بالعقول العشرة[1]..

الثانية: إلى قضية التأويل ومدخلها الصحيح..

قضية التأويل:

أولاً: إن القضية التى أثارها ابن رشد وهى تقسيم الشريعة إلى ظاهر ومؤول، وتقسيم الناس إلى عوام وخواص – قضية خطيرة تفتح أبواب الفتن وزلزلة العقائد وضياع الحقيقة، وتمهد للباطنية وغلاة الشيعة، وليس فى دين الله عقائد خاصة للعوام وعقائد خاصة بالعلماء بل هى عقيدة واحدة يشترك فيها العامى والعبقرى، وإنما الخلاف بينهما فى الإجمال والتفصيل فالعامى يؤمن بها إجمالا والعالم يؤمن بها تفصيلا عن طريق الدليل والبرهان ودفع الشبهات..

ثانيًا: إن حديث القرآن عن البعث والحشر المادى بلغ من التفصيل والإطناب حدا يرفع كل احتمال ويبعد كل توهم فلا قرينة هنا تصرف اللفظ القرآنى عن ظاهر معناه بل على العكس كل القرائن ترشح المعنى الظاهر والقول بخلاف ذلك تضليل وانحراف.

ثالثًا: إن قياس البعث على مسألة المحكم والمتشابه قياس مع الفارق فالمتشابه من آى القرآن له أصل يحمل عليه وهو المحكم وقامت أدلة العقل على استحالة المعنى المتبادر من اللفظ وليس فى قضية البعث نص صريح فى البعث الروحانى فقط ولا استحالة عند العقل فى البعث الجسمانى خصوصا إذا قلنا إنه مثل الأول لا عينه.

رابعًا: قال سعد الدين التفتازانى[2]: وما ذكرتم من حمل كلام الأنبياء ونصوص الكتاب على الإشارة إلى مثال معاد النفس والرعاية لمصلحة العامة هو نسبة للأنبياء إلى الكذب فيما يتعلق بالتبليغ والقصد إلى تضليل أكثر الخلائق والتعصب طول العمر لترويج الباطل وإخفاء الحق لأنهم لا يفهمون إلا هذه الظواهر التى لا حقيقة لها عندكم.

خامسًا: إن القضية التى كانت محل إنكار المكذبين للرسل جميعا هى:

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[3] فلو كان الحق هو البعث الروحانى فقط لكان الطريق أيسر لإقناع منكرى البعث..

سادسًا: إجماع المسلمين منذ عهد المصطفى صلوات الله عليه وعلى مدى ثلاثة قرون كاملة قبل بدء ترجمة الفلسفة الإلهية – قائم على احترام هذه الظواهر للنصوص الدينية، والقول بغير ذلك خرق للإجماع ومصادمة للنص الصريح.

---

(١) وقد عقبنا فى الفصل الثانى من الباب الأول على نظرية العقول العشرة وأثبتنا أنها أوهام وخرافات.

(٢) المقاصد – حـ ٥ ص ٩٣.

(٣) سورة الإسراء آية: ٤٩.

الفصل الثالث

التناسخية

التناسخ فى اللغة:

التناسخ والمناسخة فى الميراث موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم.. وتناسخ الأزمنة تداولها وانقراض قرن بعد قرن.. وبلدة نسيخة – بفتح فكسر – ونسخية – بضم ففتح – بعيدة، ونسخه كمنعه – أزاله وغيره وأبطله وأقام شيئا مقامه..

المعنى الاصطلاحى :

التناسخ – فى عرف القائلين به – رجوع الروح بعد موت البدن إلى العالم الأرضى متلبسة بجسد جديد..

وهو أنواع[1]:

١ – النسخ وهو: رجوع الروح إلى بدن إنسانى آخر.

٢ – المسخ وهو: رجوع الروح إلى بدن حيوانى جديد.

٣ – الرسخ وهو: رجوع الروح إلى جسم نباتى.

٤ – الفسخ وهو: رجوع الروح إلى جسم جمادى.

القائلون بالتناسخ:

أصل التناسخ نشأ من فرقة من الصابئة تسمى الحرنانية قالوا – كما حكى الشهرستانى[2] – إن التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية، ويحدث فى كل دور مثل ما حدث فى الأول، والثواب والعقاب فى هذه الدار، لا فى دار أخرى لا عمل فيها.. والأعمال التى نحن فيها إنما هى أجزية على أعمال سلفت منا فى الأدوار الماضية.

فالراحة والسرور والفرح والدعة التى نجدها هى مرتبة على أعمال البر التى سلفت منا فى الأدوار الماضية، والغم والحزن والضنك والكلفة التى نجدها هى مرتبة على أعمال الفجور التى

---

(١) المواقف جـ ٨ ص ٣٠٠.

(٢) الملل والنحل – تحقيق – كيلانى جـ ٢ ص ٥٥.

سبقت منا.. وكذا كان فى الأول وكذا يكون فى الآخر، والانصرام من كل وجه غير متصور من الحكيم.

ويعنون بالأكوار والأدوار أن الحياة تجدد نفسها كل فترة معينة قدروها بستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة، يوجد فيها من كل زوجين اثنين فإذا انقضى الدور انقطع التناسل والتوالد ويبتدئ دور جديد من الإنسان والحيوان والنبات، وكذلك أبد الدهر فلا بعث ولا قيامة ولا دار سوى هذه الدار.

وقد كان للبراهمة دور كبير فى إشاعة التناسخ فالقول به من أخص عقائدهم فميلاد[1] الإنسان فى درجة عالية أو منحطة ليس نتيجة الاتفاق المحض، ولا هو لازم لزوما ماديا محضا، ولا هو تابع لإرادة إله قدير ولكنه نتيجة أعمال طيبة عملها الشخص أو آثام ارتكبها فى حياة قبل حياته الحالية».

ومن فرق الثنوية من يقول بالتناسخ وأن[2] الإنسان أبدا فى أحد أمرين إما فى فعل وإما فى جزاء، وما هو فيه فإما مكافأة على عمل قدمه وإما عمل ينتظر المكافأة عليه، والجنة والنار فى هذه الأبدان، وأعلى عليين درجة النبوة وأسفل السافلين دركة الحية، فلا وجود أعلى من درجة الرسالة ولا وجود أسفل من دركة الحية، ومنهم من يقول الدرجة الأعلى درجة الملائكة والأسفل دركة الشيطان.

وقد أثرت هذه الأفكار فى المحيط الإسلامى فمن فرق الشيعة الهاشمية من يرى أن الأرواح تتناسخ من شخص لآخر سواء كان من بنى آدم أو من الحيوانات وأن روح الله تناسخت حتى وصلت إلى إمامهم وحلت فيه.

وقال بذلك أيضا أحمد بن حابط، وأحمد بن نانوس، وأبو مسلم الخراسانى ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب، وقال لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح عن الأجساد المتصورة بالصور البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصور الإنسان إلا بالقتل، والذبح لما جاز ذبح شىء من الحيوان ألبتة[3]..

---

(١) دائرة المعارف القرن العشرين جـ ٢ ص ١٦١.

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٤.

(٣) راجع الفصل لابن حزم جـ ١ ص ٩٠، والملل للشهرستانى جـ ١ ص ١٥١.

أدلة القائلين بالتناسخ وإبطالها:

بالنظر إلى القائلين بالتناسخ نجد أن منهم منتسبين إلى الإسلام وهؤلاء حاولوا جذب بعض النصوص.. ومن هنا نجد اتجاهين في الاستدلال: الاتجاه العام وهو التمسك ببعض الشبهات العقلية.. والاتجاه الخاص وهو لي بعض النصوص الدينية.. وسنختار نموذجا لكل اتجاه.

النموذج الأول من الاتجاه العام:

قال بعض من ذهب إلى التناسخ من الحاملين ذلك على سبيل الجزاء: إن الله تعالى عدل حكيم رحيم كريم وإذ هو كذلك فمحال أن يعذب من لا ذنب له، فلما وجدناه تعالى يقطع أجسام الصبيان الذين لا ذنب لهم بالجدرى والقروح، ويأمر بذبح بعض الحيوان الذى لا ذنب له وبطبخه وأكله، وتسليط بعضه على بعض فيقطعه ويأكله ولا ذنب له – علمنا أنه تعالى لم يفعل ذلك إلا وقد كانت الأرواح عصاة مستحقة للعقاب بلبس هذه الأجساد لتعذب فيها[1]..

والجواب :

إن ما يقع لهؤلاء الأطفال المرضى ليس بالضرورة أن يكون عقابا فلعله امتحان لآبائهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].

وما يصاب به الإنسان طفلا أو كهلا لا يستدل به على سوء العمل وسيء السلوك، فلعله رفع درجات، فإن المرء يبتلى على قدر دينه، والشدائد محك الإيمان كما قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[3].

ثم إن الخير والشر أمر نسبى بل يذهب البعض إلى أنهما عنصران متكاملان لابد منهما، والحياة الدنيا قائمة على الجمع بين الأضداد: كفر وإيمان، باطل وحق، مرض وصحة، شقاء وسعادة، فقر وغنى، موت وحياة.

والصراع دائم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[4].

---

(١) الفصل جـ ١ ص ٩١.
(٢) سورة البقرة آية: ١٥٥.
(٣) سورة الحج آية: ١١.
(٤) سورة البقرة آية: ٢٥١.

ولنعلم أن الابتلاء الذى هو قانون الحياة يكون بالشر والخير كما قال تعالى:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[1].

يقول الأستاذ فتحى رضوان[2]: فالله يبتلى الإنسان بالسلطان والثروة والنفوذ، وجمال الوجه وحب الناس وكثرة العلم إذ قد يكون له من وراء كل هذه الخيرات شرور وأذى كبير.. كما يبتليه بالضعف والمرض والجهل والفقر ويكون له من وراء ذلك خير كبير.

فى الأولى: قد يبطره الجاه والمال ويدخل فى قلبه الغرور، ويضيع عليه فرصا ويجلب عليه كراهية الناس فيفقد كل ما جمع.

وفى الثانية: قد يدفع شعور الإنسان بجهله إلى طلب العلم، ويدفعه الفقر إلى التواضع وتآلف الناس وضبط النفس واحتمال مشقات الحياة.

وما يحدث للأفراد يحدث للجماعات فكم من جماعة ابتليت بموقع من الأرض جدب فأحسنت رعايته واستخرجت منه الكنوز والثروات، وأخرى أصابت موقعا غنيا وسخيا أفاء عليها فيه الله فأورثها الرخاء والترف والرخاوة والاستهانة فغلبها على أرضها أقوام آخرون أجلاف لا نصيب لهم من العلم والمدنية.

وهذا هو قانون الحضارة الدائم: أمم تعلو بجدها وصبرها، وتقوى بتماسك أبنائها وتحملهم المشاق فإذا حققت الثروة والجاه غفلت عن سلاحها وأهملت علمها فإذا هى لقمة سائغة لغيرها ممن هم أقل منها علما وثروة وأكثر منها جلدا وصبرا.

وفى القرآن آيات كثيرة تذكر المسلمين بهذا القانون وتعرضه فى أكثر من صيغة

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[3].

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

(٢) الإسلام ومشكلات الفكر ص ٥٠.

(٣) سورة فاطر آية ٤٤.

(٤) سورة غافر آية: ٢١.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

وهذا هو القانون الذى يفسر به (توينبى) المؤرخ الإنجليزى التاريخ العام كله ويسميه قانون التحدى فمن نزل به شر سواء كان ضيقا فى الرزق أو فقرا فى الأرض أو ابتلاء بجار لا يكف عن العدوان، حفزه هذا المكروه أو ذلك الشر إلى تجميع قوته واستثارة كامن مواهبه ليعلو عليها وينجو منها، فإذا هو أحسن حالا وأقوى مما كان وأقدر على الحياة. أ هـ.

هذا وأما ذبح بعض الحيوان فإنما هو تكريم للإنسان الذى فضله خالق السموات والأرض وما فيهن وسخر له ما عداه لعمارة الدنيا التى لا تستقيم إلا بذلك التسخير كى يمارس الإنسان مهام خلافته فى الأرض.

النموذج الثانى من الاتجاه الخاص:

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾[2].

والمعنى – فى زعمهم – أن روح الإنسان تنتقل فى صور شتى إنسانية كانت أو غير إنسانية.

والجواب:

أن الآية أبعد ما تكون عن التناسخ، والسورة مسوقة لتذكير الإنسان بيوم الجزاء يوم تعلم كل نفس ما قدمت وأخرت، ثم هى تقدم له عجائب الخلق والتكوين شاهدة على أحقية يوم الدين ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ولنستمع إلى الشيخ القاسمى وهو يقول[3]:

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ ﴾ أى جعلك سويا متساوى الأعضاء والقوى، وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها بإعطائها ما تتم به.

(فعدلك) أى جعلك معتدلا متناسب الخلق، معتدل القامة لا كالبهائم، وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى المشدد أو بمعنى صرفك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة مزت بها على سائر الحيوان.

---

(١) سورة غافر آية: ٨٢.

(٢) سورة الانفطار آية: ٦ : ٨.

(٣) محاسن التأويل جـ ١٧ ص ٦٠٨٦.

﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ أى فى أى صورة شاءها ركبك عليها يعنى أنه ركبك فى صورة هى أبدع الصور وأعجبها (فأى) استفهامية والمجرور متعلق بـ (ركبك) و (ما) زائدة وجملة (شاء) صفة صورة.

والقصد أن مَنْ خلق هذا الخلق البديع وسواه وعدله بقدرته وتقديره حتى أحكم صورته فى ذلك التركيب لجدير بأن يتقى رأسه ويحذر بطشه ويرهب أشد الترهيب).

هذا والرد العام على التناسخية باختصار هو أن قولهم رجم بالغيب وتوسيع لأوهام العقل وخيالاته الجامحة، فما كانت قصة الحياة الإنسانية فى دابرها ومستقبلها لتؤخذ من أفواه الناس هكذا كأحدوثة عجيبة أو رواية طريفة بل لابد من إلقاء السلم لبارئ الحياة وخالق الأحياء يقص الحق وهو خير الفاصلين.

مناقشة رأى التناسخية فى البعث

خلاصة رأيهم فى البعث نجمله فى ثلاث نقاط هى:

١ — الروح لا تعود إلى بدنها الأول وإنما تعود إلى بدن آخر.

٢ — لا قيامة ولا جنة ولا نار بالمعنى الشرعى.

٣ — الجزاء فى هذه الدنيا وتعاقب الأرواح على الأبدان فى هذا العالم هو الجزاء على ما أسلفت من خير أو شر.

أما النقطة الأولى: وهى عدم عودة الروح إلى بدنها الأول فقد نسلم به بناء على رأى المحققين وهو أن البعث عودة الروح إلى مثل بدنها الأول لا إلى عينه.. مع ضرورة الإبقاء على الصورة الإنسانية تحقيقا لتمايز الأنواع.

أما قولهم بأن الدنيا دار جزاء فمحل نقاش لأنها دار تكليف وما بعث الرسل إلا لبيان ذلك بالأمر والنهى ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وحياة الإنسان فى هذه الدار مرحلة لممارسة ذلك التكليف والقيام بتبعاته.. ومنطق العقل يقول بترتيب الجزاء بعد إنهاء فرصة الحياة ووقت التكليف..

لكن هل تخلو الدنيا من جزاء؟

الحق — كما يقول صاحب المقاصد[1] نقلا عن بعض المعتزلة — أن التكليف لا يجامع كل الجزاء للزوم المحال (وهو الجمع بين المتناقضين فإن من شرط الثواب الخلوص عن شوب المشاق ومن لوازم التكليف الشوب بها) بخلاف البعض كتعظيم المؤمن ونصرته على الأعداء وكالحدود فإنه يجامع التكليف فلم يجب تأخيره.

وأما إنكارهم للقيامة والجنة والنار فمصادمة للنص الدينى القاطع وخرق لإجماع أهل الأديان السماوية جميعا إن كانوا قائلين بالنبوة والشرع أما إذا كان التناسخية دهريين فالنقاش معهم فى أصل العقيدة ومبدئها وهو الإيمان بالله واجب الوجود ومانح الحياة فإن عقيدة البعث مرتبطة بالألوهية فلا بعث بغير إله قادر عليم.. وقد أفردنا فصلا عن المذهب المادى وأجهزنا عليه بحول الله وقوته.

---

(١) المقاصد — تحقيق د. عبد الرحمن عميرة حـ ٥ ص ١٣١.

فالقول هو أن الروح تعاد لمثل بدنها فى عالم آخر هو يوم القيامة لتنال جزاءها عقابا أو ثوابا.. وقد حكى القرآن استحالة عودة الروح إلى الدنيا مرة أخرى كى تتدارك ما فات من تقصير، وصوره فى صور بيانية رائعة..

ففى سورة الأنعام يصور القرآن مشاعرهم حين واجهوا المصير السئ فيقول:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ - ٢٧.

ثم يفصح القرآن عن حقيقة نفوسهم التى قد استحكم فيها الفساد فيقول:

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ - ٢٨.

وأبعد من ذلك لو ردوا لأنكروا ما عاينوه فى ذلك الموقف الصعب وتشبثوا بالحياة الدنيا ونسوا الآخرة ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾. فقد جعل بعض المفسرين هذا القول معطوفا على جواب ولو ردوا وهو ملحظ دقيق.

وفى سورة المؤمنون نرى مشهدا لهؤلاء عند الموت:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾. ثم تبين أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد كلمة جوفاء لا مضمون لها ولا رجاء فيها:

﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾. وتسير بنا الآيات حتى نلمحهم ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾. ونسمع التقريع لهم:

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾. فيقدمون الاعتراف ويتبعونه برجاء أن يعودوا إلى الدنيا ليحسنوا ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾.

والنهاية التى لا مفر منها ولا وزر: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

وسورة (فاطر) تقدم مشهدا من مشاهد العذاب:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ ﴾.

والجواب الحاسم أنه قد أعذر من أنذر:

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾.

***

ومن ذلك كله تتهاوى دعاوى القائلين بالتناسخ.. على أنه لا فائدة ترجى عقلية أو خلقية من نظرية التناسخ بحجة التطهير من أدران البشر فليس من دليل — كما يقول يوسف كرم[1] — على أنّ المعاصي المرتكبة في هذه الحياة يجب أن يكفر عنها في هذه الحياة، وليس من شهادة للوجدان بأننا قد مررنا بحيوات سابقة، ولا ضرورة لما يستشهدون به من أن تفاوت بني الإنسان في الصفات الفطرية ليس صنع الله الكلي العدالة فهو نتيجة حسن استعمال الأنفس للحرية أو سوء استعمالها إياها من قبل.

ويمكن القول أيضا بما يذهب إليه ابن سينا — كما يفهم من إشاراته[2] — أنه لو صح التناسخ لاقتضى فساد بدن ما وجود بدن آخر تحل فيه النفس واقتضى ذلك أيضا أن توجد أجسام ناشئة بعدد الأجسام التي تفنى ولكن ذلك منقوض بحالات الحرب والأوبئة فيفنى العدد الكثير من الأبدان ومن المعلوم بداهة أن ما يتكون في ذلك الوقت من الأبدان الجديدة أقل مما يفنى فلو كان تعلق النفوس على طريقة التناسخ للزم تعطل بعضها إلى أن يحدث بدن تتعلق به، أو عدة نفوس تتصل ببدن واحد فتحل فيه متجاورة أو تتنازع وتتدافع وتتمانع وكل ذلك باطل.

وما القول بتناسخ الإنسان في الحيوان والنبات إلا ضرب من السفسطة ومصادمة لبديهة العقل وضرورة الحس، ويحكي ابن الجوزي واقعة حال هي أقرب إلى الخيال فيقول بإسناده[3]:

كان يحضر معنا ببغداد شيخ الإمامية يعرف بأبي بكر بن القلاس فحدثنا أنه دخل على بعض من كان يعرفه بالتشيع ثم صار يقول بمذهب التناسخ قال فوجدته بين يديه سنور أسود وهو يمسحها ويحك بين عينيها، ورأيتها وعينها تدمع كما جرت عادة السنانير بذلك وهو يبكي بكاء شديدا فقلت له: لم تبكي؟ فقال: ويحك أما ترى هذه السنور تبكي كلما مسحتها، هذه أمي لا شك.. تبكي من رؤيتها إليّ حسرة..!! قال: وأخذ يخاطبها خطاب من عنده أنها تفهم منه وجعلت السنور تصيح قليلا قليلا. فقلت له: فهي تفهم عنك ما تخاطبها به؟! فقال: نعم فقلت: أتفهم أنت صياحها؟! قال: لا، قلت: أنت المسوخ وهي الإنسان..!!.

---

(١) الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ١٣٢.

(٢) الإشارات — القسم الرابع النمط الثامن.

(٣) تلبيس إبليس ص ٨٠.

ومن هنا فالنفوس الإنسانية متميزة نوعًا وشخصًا فلا تحل فى أبدان نوع آخر ولا تعاود الكرة مرة أخرى فى تلك الحياة الدنيا..

بقيت لنا وقفة مع قوله تعالى فى شأن بعض اليهود ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[1]، وللعلماء فيه وجهان:

الأول: إن المسخ هنا معنوى كما روى عن مجاهد أنه قال (ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظا ولا تعى زجرا) ويكون المقصود من الآية تشبيههم بالقردة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ وقول القائل:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرًا من يابس الصخر جلمدا

وقال الإمام الرازى فى تفسيره[2]:

«ما ذكره (مجاهد) غير مستبعد جدا لأن الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البينات فقد يقال فى العرف الظاهر إنه حمار وقرد، وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة لم يكن فى المصير إليه محذور ألبتة».

ويذهب صاحب المنار[3] إلى أنه لو صح المسخ الحقيقى لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان إذ ليس من سنته فى خلقه، وإنما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله تعالى فى الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمر ربه وينتكب الصراط الذى شرعه له - يتنزل عن مرتبة الإنسان ويلحق بعجماوات الحيوان. ولذلك قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.. ثم يقول صاحب المنار: «ولا يتم كون تلك العقوبة نكالا للمتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة فى تربية الأمم وتهذيب الطباع».

الثانى: أنهم مسخوا قردة على الحقيقة وهو رأى جمهور المفسرين، فهل هذا من باب التناسخ؟ والجواب بالنفى لما يأتى:

١ - أنهم بعد أن مسخوا لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا، والرواية عن ابن عباس أنهم ما مكثوا إلا ثلاثة أيام ثم هلكوا. وذلك على عكس رأى التناسخية بأن الأرواح تتقلب فى الأجساد دائما ثوابًا وعقابًا، وقد سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى

---

(١) سورة البقرة آية: ٦٥.

(٢) التفسير الكبير جـ ٣ ص ١١٩.

(٣) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٤٤.

مما مسخ؟ فقال: «إن الله تعالى لم يهلك قومًا أو يعذب قومًا فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك» رواه مسلم عن ابن مسعود.

٢ – إن ذلك لم يكن عامًا في جميع البشر وإنما هو خاص بطائفة معينة أعرضت عن الحق واستمرأت الباطل وذلك بخلاف قول التناسخية بعموم تنقل الأرواح.

٣ – إن من مسخ قردًا تحولت بنيته الإنسانية إلى هيكل القرد فقط وبقيت الروح فيه بخلاف رأى التناسخية بأن الروح تفارق بدنها الأول وتنقل إلى بدن آخر قد يكون إنسانًا وقد يكون حيوانًا.

الفصل الرابع

مذهب المتكلمين

قدمنا في الباب الأول من هذا الكتاب خلاف المتكلمين حول مادية الروح وتجردها، ورأينا أن جمهورهم يذهب إلى نفى المجردات مطلقًا وأن المحققين منهم يقولون بتجرد الروح.

وبناء على ذلك فالقائلون بمادية الروح يذهبون إلى أن البعث جسمانى فقط بمعنى أنه عودة الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ليساق إلى المحشر لفصل القضاء.

والإنسان روح وبدن وكلاهما مادى، والروح تعود إلى البدن بعد المفارقة، والبدن يعود إلى الوجود بعد الفناء أو إلى الاجتماع بعد التفرق على خلاف فى ذلك كما سيأتى.

أما القائلون بتجرد الروح فالرأى عندهم أن البعث هو جسمانى وروحانى معًا، بمعنى أن النفس وهى جوهر مجرد يعود إلى البدن عندما يريد الله إحياء من فى القبور.. وتكون لذة النفس فى الشعور بالجمال والكمال بإطلاعها على حقائق الوجود والاتصال برب العالمين والقرب من صفاته والتشبه بها، وتكون لذة الجسم فيما عهده من مطعم شهى ومشرب هنى ومنكح بهى مع التسامى عليه فى الجنس والحقيقة واللذة كما قال تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

فكلا الفريقين قائل بوجوب عودة البدن تصديقًا للخبر الإلهى، على نقيض مذهب الفلاسفة القائلين باستحالة عودته.

أما المعاد الروحانى أعنى التذاذ النفس بعد المفارقة وتألمها باللذات والآلام العقلية فلا يتعلق التكليف باعتقاده - كما يقول جلال الدين الدوانى[2] - ولا يكفر منكره ولا منع شرعًا ولا عقلاً من إثباته.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥.

(٢) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين - تحقيق د. سليمان دنيا جـ ٢ ص ٦١٩.

طريق إثبات البعث الجسمانى:

هل البعث الجسمانى واجب الوقوع بدليل الشرع أم بدليل العقل؟

يدعى المعتزلة وجوب وقوع البعث الجسمانى بدليل العقل وتقريره أنه يجب عقلاً ثواب المطيع وعقاب العاصى وذلك لا يتأتى إلا بإعادتهم بأعيانهم فيجب، لأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولا يكفى المعاد الروحى وحده لأن المطيع والعاصى هو هذا البدن بآلاته وأعضائه ولا يصل الجزاء إلى مستحقه إلا بإعادتها.

ويمكن الرد على ادعاء المعتزلة بالوجوب العقلى بأن نقول مع صاحب المقاصد[1] - إنه إن اعتبر الأمر بحسب الحقيقة فالمستحق هو الروح لأن مبنى الطاعة والعصيان على الإدراكات والإرادات والأفعال والحركات وهو المبدأ للكل، وإن اعتبر بحسب الظاهر يلزم أن يعاد جميع الأجزاء الكائنة من أول التكليف إلى الممات ولا يقولون بذلك!؟

والحق أن العقل يقدم لنا دليل الإمكان من وجهين:

١ - الممكن لا ينقلب مستحيلاً فوجود الإنسان ممكن لذاته بدليل وقوعه، فعوده ثانيًا جائز لأن مقتضى الذات لا يختلف بحسب الأزمنة.

٢ - الله سبحانه وتعالى محيط علمًا بكل شىء وقدرته صالحة لجميع الممكنات، وصحة القبول من القابل - كما يقول صاحب المواقف[2] - والفعل من الفاعل توجب الصحة أى صحة الوقوع وجوازه قطعًا.

ومن هنا نعلم أن الحشر الجسمانى ممكن الوقوع عقلاً فإذا ضممنا إلى ذلك إخبار الصادق المصدوق فى نصوص صريحة لا تقبل التأويل حكمنا بأن الحشر واجب الوقوع شرعًا فالمعتمد إذن فى إثبات حشر الأجساد دليل السمع.

دلائل الحشر الجسمانى:

وردت نصوص القرآن المجيد وتواتر النقل عن النبى ﷺ بإثبات المعاد الجسمانى لأن كمال الإنسان بما هو إنسان لا يتم إلا بالحفاظ على جزأيه الجسم والروح معًا لا أن ينقلب عن حدود نوعه إلى نوع آخر.. كل ما هنالك أن النشأة الثانية أجمل وأسمى فالروح أكثر إشراقا والبدن أكثر طهرا فى جانب الثواب، وأخبث وأنقص فى جانب العقاب «ولو كان[3] البعث للأرواح

---

(١) المقاصد - جـ ٥ ص ٩٢.

(٢) المواقف جـ ٨ ص ٢٩٥.

(٣) الوحى المحمدى - محمد رشيد رضا ص ١٣٥.

وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم بين الخلق، المؤلف من روح وجسد، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجثمانية ويتحقق بحكم الله وأسرار صنعه فيهما معًا من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى والملائكة من الثانية، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحانى المجرد إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها، وإنما تكون نقصًا فى الإنسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها.

وأصل هذا الإفراط والتفريط غلو الهنود فى احتقار الجسد وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضات الشاقة وتبعهم فى ذلك نساك النصارى كما تبعوهم فى عقيدة الصلب والفداء والتثليث».

وإذا تتبعنا الدلائل السمعية وجدنا أن هناك نصوصًا تدل على أن المعاد للجسم وهناك نصوص أخرى تدل على أن الجزاء واقع على الجسم.

وهاك البيان:

١ — قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[1]. قال المفسرون. نزلت هذه الآية فى أبى بن خلف، خاصم النبى ﷺ وأتاه بعظم قد رم وبلى قبضه ففتته بيده وقال:

يا محمد أترى الله يحيى هذا بعد ما رم؟

فقال ﷺ: نعم ويبعثك ويدخلك النار..

وهذا مما يقطع عرق التأويل بالكلية، وقد سبق لنا وقفة مع هذه الآيات الكريمة.

٢ — قال الله سبحانه:

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾[2].

---

(١) سورة يس آية ٧٨.

(٢) سورة الإسراء آيات ٤٩ ، ٥١.

فالقوم استبعدوا أن يرجعوا أحياء بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا وقد كانت أجزاء لبدن حى، فرد الله عليهم بأنهم حتى ولو صاروا على أوضاع لا تقبل الحياة أصلاً كالحجارة والحديد أو شيئًا آخر أبعد عن قبول الحياة فإن الله العليم بكل شىء القادر الذى لا يعجزه شىء - يعيدهم إلى الحياة فهو الذى خلقهم ولم يكونوا شيئًا.

٣ - فى سورة «الواقعة» تفصيل دقيق للجزاء وبرهان قوى على البعث فقد قسمت السورة الناس إلى ثلاث طوائف:

(أ) السابقون.

(ب) أصحاب اليمين.

(جـ) أصحاب الشمال.

ووصفت جزاء كل فريق وصفا دقيقًا رائعًا فقالت عن السابقين:

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

وعن أصحاب اليمين:

﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

وقد جمع الثواب فى كلا الفريقين بين المطعوم والمشروب والمنكوح إلا أنه فى القسم الأول أكمل وأجل لإخلاصهم فى العمل ومسارعتهم إلى الخيرات ومن هنا يلحظ بعض العلماء أن الله سبحانه لم يقل فى حق أصحاب اليمين ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ كما قال فى حق

السابقين إيماء إلى أن في عمل أصحاب اليمين قصورا يقعد بهم عن اللحاق بالسابقين. فالفضل في حقهم متمحض.

وجاء في تفسير الألوسي[1] «لما شبه حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن من كونهم على سرر تطوف عليهم خدامهم بأنواع الملاذ، شبّه حال أهل اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي من نزولهم في أماكن مخصبة فيها مياه وأشجار وظلال، إيذانا بأن التفاوت بين الفريقين كالتفاوت بين أهل المدن والبوادي».

وعن أصحاب الشمال:

﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ثم قالت الآيات:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾

وقد تكفلت الآيات بعد ذلك بالرد عليهم وسياق الحجج الدامغة وقدمت لنا أربعة أدلة هي:

الدليل الأول: قياس النشأة الثانية على الأولى.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ .. إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

فإن الفاعل لتلك الأطوار العجيبة لخلق الإنسان قادر على إعادته بل الإعادة أهون في منطق العقل وبرهان الواقع.

الدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها بخروج النبات منها.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ فإن القادر على شق الأرض وإخراج النبات من كل زوج بهيج ومن كل زوجين اثنين لا ريب قادر على إحياء الموتى ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

الدليل الثالث: إنزال الماء من السحاب فينتفع به الناس والأنعام

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

---

(١) روح المعاني جـ ٢٧ ص ١٢١.

(٢) سورة فصلت آية: ٣٩.

وفى سورة الأعراف تفصيل لذلك الدليل فيقول جل شأنه:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

فإن القادر على إحداث الأجسام وخلق خواصها المتباينة طعما ولونا ورائحة لا شك قادر على أن يعيد الحياة إلى بدن الميت.

الدليل الرابع: إبداع أشجار توقد بها النار أو توقد منها النار وما ذلك على الله بعزيز.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وإذا كان الشيء يحدث من نقيضه فالنار تخرج من الشجر الأخضر فمن باب أولى أن يحدث الشيء من ذاته ويعود الإنسان كما بدأ..

والقول بتأويل هذه الدلائل على وجوب البعث الجسمانى إلى ضرب من التمثيل لتقريب المعنى وتفهيم العوام هو مصادم للنص وخرق للإجماع ونسبة للأنبياء إلى الكذب فيما يتعلق بالتبليغ كما سبق أن وضحنا ذلك.

كيفية الإعادة

اتفق المتكلمون على وقوع البعث الجسمانى وحقية إعادة البدن، لكنهم اختلفوا هل ذلك بإيجاد بعد العدم المحض أم بالجمع بعد تفريق الأجزاء وإخراج الجسم عن هيئته المعهودة؟.

وقد التجأ كل فريق إلى النصوص يحاول ضمها لرأيه، وليس هناك قاطع شرعى فى ذلك وحاول كل فريق إخراج اللفظ المستدل به عن المعنى الذى احتج به الآخر ولهذا توقف إمام الحرمين وقال[1]:

«يجوز كلا الأمرين عقلا ولم يدل قاطع سمعى على تعيين أحدهما، فلا يبعد أن تصير أجسام العباد على صفة أجسام التراب ثم يعاد تركيبها إلى ما عهد قبل، ولا نحيل أن يعدم منها شيء ثم يعاد والله أعلم بعواقبها ومآلها».

---

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد – تحقيق د. محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم عبد الحميد ص ٣٧٤.

ونقدم هنا دليلا لكل فريق ثم رد الآخر عليه..

دليل القائلين بأن الإعادة عن عدم: قال تعالى:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[2] فإن الهلاك والفناء هو العدم المحض.

ورد هذا الاستدلال بما يأتي:

١ — إن المراد بالهلاك والفناء هو الخروج عن الانتفاع المقصود به اللائق بحاله كما يقال: هلك الطعام أوفنى إذا لم يبق صالحا للأكل وإن صلح لمنفعة أخرى.

٢ — أو المراد بهما الموت كما قال تعالى: ﴿ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾[3]. وكما يقال: أفناهم الحرب.

٣ — أو المراد أنه قابل للهلاك والفناء بمعنى العدم المحض لأن وجوده من غيره والقابل قد لا يعدم فليست الآية نصا فى وقوع وتحقق العدم المحض لكل شيء.

دليل القائلين بأن الإعادة عن تفريق:

حكى القرآن مقالة المشركين فى إنكارهم البعث فقال:

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ ﴾[4].

فهؤلاء استبعدوا إعادتهم ورجوعهم أحياء بعد صيرورتهم ترابا وعظاما فردّ الله عليهم بقوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾.

فبين سبحانه أنه عالم بأجزائهم وما تنقص الأرض منهم، وقادر على جمعها بعد تفريقها وإعادتها كما كانت بدنا واحدًا.

وقد ردّ هذا الاستدلال بما يأتي:

١ – أنها لا تنفى الإعادة عن عدم وإن لم تدل عليه.

٢ – هذه واقعة خاصة لأنها جواب عن سؤال.

---

(١) سورة القصص آية ٨٧.

(٢) سورة الرحمن آية ٢٦.

(٣) سورة النساء آية ١٧٦.

(٤) سورة ق آية ٢ ، ٣.

٣ – أنها معارضة بآيات مشعرة بالفناء.

رأى واتجاه:

المسألة إذن ليست اعتقادية فلكل وجهة والأمر هين.. ولكن أرجح أن الإعادة عن تفريق حتى نسد الطريق على القائلين باستحالة البعث الجسماني من الفلاسفة بناء على امتناع إعادة المعدوم، فهذا الرأى لا يتوقف على امتناع إعادة المعدوم أو جوازه لأنه لا معدوم ثمة بل أجزاء متفرقة.

وهناك قسم لا يدخله الخلاف السابق أى أنه لا يعاد عن عدم ولا عن تفريق بل يعاد عن جسمه الذى كان كما هو مثل الأنبياء والشهداء والصالحين الذين لا تأكل الأرض أجسادهم، ومثل الأجسام التى حفظها الطب عن البلى كقدماء المصريين الذين برعوا فى فن التحنيط ومازالت أجسادهم كما هى رغم مرور دهور سحيقة.

وهناك أمور ثانوية مثل خلافهم فى الأعراض هل يجوز إعادتها أم يمتنع؟ وإذا جاز إعادتها فهل تعود جميعا أو بعضها، وهل الإعادة دفعة واحدة أم على التدريج حسبما كانت فى الدنيا؟

ومع كونها ثانوية فإنى أقول إن الاتجاه إلى امتناع إعادة الأعراض أو قصر الإعادة على بعضها واستحالة الآخر – هذا الاتجاه يتنافى مع دليل الإمكان العام وهو أن كل ما وجد فهو ممكن، والممكن لا ينقلب مستحيلا فى وقت من الأوقات للقطع بأنه لا أثر للأوقات فيما هو بالذات.

وقد سبق[1] أن أوردنا تأكيد العلم الحديث أن جميع الأعمال التى يباشرها الإنسان تصدر عنها اهتزازات حرارية تظل موجودة فى الفضاء تعكس صورة العمل ومن الممكن تجميعها فى أى لحظة، مما يقرب معنى قوله سبحانه: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

وبعد – فواجب الاعتقاد أن الجسم يعاد وهو من ضروريات الدين، وإنكاره هو الكفر الصراح – على حد تعبير الغزالى – أو الكفر بيقين على حد تعبير السعد.

---

(١) راجع إمكان البعث، من الكتاب.

الفصل الخامس

منهج القرآن فى إثبات البعث

نحاول فى هذا الفصل أن نقف خاشعين أمام الهدى الإلهى مستلهمين منهجه فى عرضه لعقيدة البعث والاستدلال عليها بعد هذه الجولة الطويلة فى معترك المذاهب والآراء..

والحديث عن البعث ذو شقين:

١ - إمكانه.

٢ - وقوعه.

والإمكان يستدل عليه بالعقل أما الوقوع فيستدل عليه بالنقل.

وقد حرص القرآن فى منهجه هنا على بيان الإمكان والوقوع واستدل عليهما ولفت الأنظار إليهما.

ونستطيع أن نجمل أصول هذا المنهج القرآنى فيما يلى:

١ - الاتجاه الأول:

مادام البعث ممكنا عقلا فالوقوع يحتاج إلى صحة النقل عن المعصوم فقط، ومن هنا جاءت آيات تؤكد وقوعه من غير أن تستدل عليه لكون الوقوع لا يحتاج إلا لمجرد الإخبار من الله تعالى به، مثال ذلك ما جاء فى سورة الصافات:

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ فرد الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾.

فاكتفى هنا بتأكيد الوقوع بناء على جواز الإمكان عقلا.

وكذلك ما جاء فى سورة التغابن:

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

٢ - الاتجاه الثانى:

قياس الإعادة على البدء فإن من أنشأ قادر على أن يعيد بل الإعادة أهون.. مثال ذلك قوله تعالى فى سورة العنكبوت.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وفى سورة «ق».

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

٣ - الاتجاه الثالث:

الاستدلال بالاقتدار على خلق السموات والأرض وهو أكبر وأعظم من خلق الناس فإن القادر على الأعظم قادر على ما هو دونه، مثال ذلك ما جاء فى سورة الأحقاف:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

٤ - الاتجاه الرابع:

الاستدلال على الحشر والنشر بقدرة الله على أمور تشبهه مثل إحياء الأرض بخروج النبات منها وإنزال الماء من السماء عليها، من ذلك قوله تعالى فى سورة «فصلت»:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

٥ - الاتجاه الخامس:

بيان حكمة البعث وضرورة وقوعه تحقيقا للعدل الإلهى.. من ذلك ما جاء فى سورة «يونس»:

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾.

٦ - الاتجاه السادس:

النماذج التطبيقية التي قدمتها القدرة الإلهية في دنيا الناس من إحياء الله الموتى، وذلك على صور شتى منها:

(أ) قصة البقرة وذلك حين اختلف قوم من اليهود في قتيل لم يظهر قاتله فأوحى الله إليهم على لسان رسوله موسى عليه السلام أن اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها فأحياه الله وأخبر بقاتله.. وفي نهاية القصة يقول سبحانه:

﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

(ب) قصة الذي مر على قرية خاوية على عروشها فتعجب كيف يحييها الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه فظن أنه لم يلبث إلا يوما أو بعض يوم لأن طعامه وشرابه لم يتغير فأخبره سبحانه بالحقيقة ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾. وبين تعالى حكمة ذلك في قوله:

﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾.

(جـ) قصة عيسى عليه السلام ولها جانبان:

١ - ولادته من غير أب.. وحين استشعرت مريم عليها السلام الحرج:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾.

جاءها الرد من الحق سبحانه:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

٢ - معجزات عيسى كما في قوله تعالى:

﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

(د) أصحاب الكهف وهم فتية آمنوا بربهم وآووا إلى الكهف فرارا بدينهم فجعلهم الله آية للعالمين حيث لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا ثم بعثهم الله من مرقدهم وذكر الحكمة في قوله:

﴿ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾.

صدق الله العظيم.

---

(١) سورة آل عمران آية: ٤٩.

حمد ودعاء

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله..

وإلى هنا نكون قد طوفنا مع الروح فى نشأتها ومراحل تعلقها بالبدن وحياتها فى عالم الجزاء.. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا..

وبهذا قد أكملنا المسيرة المؤمنة فى رحاب الدين وصحبة العقل وصولاً إلى حيث ينادى المنادى:

يا أهل الجنة: خلود بلا موت.

ويا أهل النار: خلود بلا موت.

***

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.